

سلسلة رسائل نرشيد الصحوة (٨)

رسور يوسف القرضاوي

المسيحيون في نضال الإسلام

الناشر

مكتبة وهبة

٤ اشارع الجمهورية. عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٦٧٥

لمبشير بن نضير الإسلام



سلسلة من سائلٍ ترشيد الصّحّوة

المبشر بانتصار الإسلام

دكتور يوسف القرضاوي

الناشر
مكتبة وهبة

٤ اشارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثالثة

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

جميع الحقوق محفوظة

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأي وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدونأخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر أو المؤلف.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلوة والسلام على معلم الناس الخير ، وهادى البشرية إلى الرشد ، وقائد الخلق إلى الحق ، سيدنا وإمامنا ، وأسوتنا وحبينا محمد ، وعلى الله وصحبه ومن أتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أما بعد) ..

فهذه الرسالة تتحدث عن (المبشرات بانتصار الإسلام) وأعتقد أن حديثنا عن (المبشرات) مطلوب - وخصوصاً في هذه الآونة - لأكثر من سبب :

- ١ - هو مطلوب ، لأننا مأمورون بصفة عامة أن نبشر ولا تنفر ، كما نحن مأمورون أن نيسر ولا نعسر ، فإن النبي ﷺ حينما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن أوصاهما بهذه الوصية الموجزة الجامعة : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا » ، وكذلك روى صاحبه وخادمه أنس بن مالك أنه أمر الأمة كلها بما أمر به معاداً وأبا موسى فقال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

وأحمد الله أن هذا هو المنهج الذى وفقنى الله إلى التزامه فى الفتوى والدعوة ، ففى مجال الفتوى : التزمت التيسير لا التعسir ، وفي مجال الدعوة : التزمت التبشير لا التتفير . والله الفضل والمنة .

٢ - وهو مطلوب ، لأن المسلمين عامة ، والعاملين للإسلام خاصة ، يمرون بمرحلة عصيبة من مراحل تاريخهم المعاصر ، وتکاد تغلب في هذه المرحلة عوامل اليأس ، ومشاعر الإحباط ، وهذا الشعور إذا استسلمت له الأنفس ، قتل فيها الهم ، وحدر العزائم ، ودمى الطموحات ، وهذه المعانى هي التي تحرك الإرادات للعمل ، وبذل الجهد .

ومرد هذا الشعور الأسود إلى الضربات المتلاحقة التي توجه بخيث ومكر - من أعداء الإسلام - إلى الصحوة الإسلامية ، والحركة الإسلامية ، بغية إطفاء نور الإسلام ، ووقف حركته ، وتمويت يقظته ، واستعاناً على ذلك ببعض حكام المسلمين ، الذين خوفوهم من الصحوة ، وحرضوهم على الصفة ، وأمروهם بضرب الدعوة ، وللأسف استجاب لهم أولئك الحاكمون ، الذين يخافون من انتصار الإسلام أن يحرموا من شهواتهم ، وأن يجردهم من مكاسبهم المحرمة ، وأن يجرئ عليهم الشعوب ، لتحاسبيهم على ما اقترفوا .

٣ - وهو مطلوب ، لأن القوى المعادية للإسلام ، تريد أن تعلن - بل قد أعلنت بالفعل - على الإسلاميين حرباً نفسية ، تؤسهم

من الأمل فى غد أفضل ، والرجاء فى مستقبل مشرق . وبدأت حملات مسحورة ، تحركها قلوب موتورة ، وتقودها أقلام مأجورة ، وأبواق مأمورة ، تتهم وتلطخ وتشوه ، كل ما هو إسلامى ، وتهتم دعاء الإسلام وأبناء الصحوة بالنطرف حيناً ، وبالعنف أحياناً ، وبالإرهاب طوراً ، وبالأصولية أطواراً ، مطلقين على الحركة التى تدعوا إلى الإسلام المتكامل - عقيدة وشريعة ، وديناً ودولة - (اسم الإسلام السياسى) ، والإسلام الحقيقى لا بد أن يكون سياسياً .

لهذا كان علينا أن نقاوم هذه الحملات المعادية بسلاح مضاد ، وهو نشر الأمل بانتصار الإسلام ، وإحياء الرجاء فى مستقبله ، وشحن نفوس الجيل الصاعد بهذا الشعاع الذى يبدى ظلمات اليأس ، وغيمون الإحباط .

٤ - وهو مطلوب كذلك ؛ لأن كثيراً من المسلمين يشيع بينهم فكر مغلوط عن (آخر الزمان) وبعبارة أخرى : عن مستقبل الأمة ، وهو مستقبل أقرب إلى السواد ، إن لم يكن أسود حالكما ، وهو فكر مؤسس على أفهام شاعت لبعض الأحاديث التى وردت فى سياق الكلام عن الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، ولكن هذه الأفهام غير سليمة .

لهذا كنا فى حاجة إلى تجلية حقيقة (المبشرات) الغائبة عن كثيرين : من القرآن الكريم ، ومن السنة المشرفة ، ومن التاريخ

الحافل ، ومن الواقع الماثل ، ومن سنن الله الثابتة ، التي لن تجد لها تبديلاً ، ولن تجد لها تحويلاً .

وكل داعية للإسلام يجب أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى ، مستبشرًا بمستقبل رسالته الخاتمة ، ودعوته الخالدة ، رافضاً اليأس الذي هو من لوازم الكفر ، والقنوط الذي هو من مظاهر الضلال .

وهكذا وجدت إمامنا الشهيد حسن البنا ، لم تنطفئ شعلة الأمل في صدره في أشد الأوقات حرجاً ، وكم دبج في ذلك المقالات التي تحبي الأمل ، وتبعث الرجاء ، وكم كرر في رسائله : أن حقائق اليوم هي أحلام الأمس ، وأحلام اليوم هي حقائق الغد !

وكتب الشهيد سيد قطب كتابه (المستقبل لهذا الدين) ، وهكذا كل الدعاة الأصلاء .

فلنستبشر خيراً ، ولنأمل خيراً : ﴿ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلّٰهِ ، سَيِّرُكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رِبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

الفقير إليه تعالى :

الدوحة في شوال ١٤١٦ هـ - مارس ١٩٩٦ م يوسف القرضاوي

* * *

(١) النمل : ٩٣

المبشرات بانتصار الإسلام

يتحدث كثير من الدعاة عن آخر الزمان ، وعن أحاديث الفتن والملائم وأشراط الساعة ، حديثاً يوحى مجمله أن الكفر في إقبال، وأن الإسلام في إدبار ، وأن الشر يتتصر ، والخير ينهزم ، وأن أهل المنكر غالبون ، وأهل المعروف ودعاته مخذولون .

ومعنى هذا : أن لا أمل في تغيير ، ولا رجاء في إصلاح ، وأننا ننتقل من سوء إلى أسوأ ، ومن الأسوأ إلى الأشد سوءاً ، فما من يوم يمضي إلا والذى بعده شر منه ، حتى تقوم الساعة .

وهذا لا شك خطأ جسيم ، وسوء فهم لما ورد من بعض النصوص الجزئية ، وإغفال للمبشرات الكثيرة الناصعة القاطعة ، بأن المستقبل للإسلام ، وأن هذا الدين سيظهره الله على كل الأديان ، ولو كره المشركون .

لهذا كان من اللازم أن نتحدث عن هذه (المبشرات) ، ونشيعها بين المسلمين ، حتى نبعث الأمل المحرك للعزائم ، ونهزم اليأس القاتل للنفوس .

وهذه المبشرات كثيرة والحمد لله ، بعضها مبشرات نقلية من القرآن الكريم ومن السنة النبوية ، وبعضها من التاريخ ، وبعضها من الواقع ، وبعضها من سنن الله في الخلق .

وستتحدث عن كل واحدة من هذه المبشرات في الصحائف التالية ، بما يفتح الله به .



المبشرات من القرآن الكريم

أول هذه المبشرات : ما جاء في القرآن ما وعد به الله تبارك
وتعالى عباده المؤمنين بنصرة الإسلام ، وإتام نوره ولو كره الكافرون ،
إظهاره على كل الأديان ولو كره المشركون .

نقرأ في سورة التوبة - في سياق الحديث عن الذين يعادون
الإسلام من المشركين وأهل الكتاب الذين حرفوا دينهم ، واتخذوا
أخبارهم ورعباً من دون الله ، والذين يأكلون أموال الناس
بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله - قوله تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّمَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

يقول العلامة ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين :

« يقول تعالى : يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب :
﴿ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى
ودين الحق ، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ،
ولهذا قال تعالى مقبلاً لهم فيما راموه وأرادوه : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ

(١) التوبة : ٣٢ ، ٣٣

يُتَمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ والكافر هو الذى يستر الشيء ويغطيه ، ثم قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ ، فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح ، والعلم النافع ، ودين الحق هو : الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة : ﴿لِيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي على سائر الأديان ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ زَوِّى لِي الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيِّلَعْ مَلِكُ أَمْتَى مَا زَوِّى لِي مِنْهَا » (١) ، وأخرج الإمام أحمد بمسنده عن مسعود بن قبيصه أو قبيصه بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول : « إِنَّهُ سَتْفَتْحَ لَكُمْ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ عَمَالَهَا فِي النَّارِ إِلَّا مِنْ أَتْقَى الْأَنْفُسِ وَأَدَدِ الْأَمَانَةِ » (٢) وأخرج الإمام أحمد أيضاً عن تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغر والجزية (٣) .

(١) رواه مسلم في كتاب (الفتن وأشاراط الساعة) ، حديث رقم ١٩ وأبو داود (٤٢٥٢) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/٣٦٦) وحدفنا السنن اختصاراً .

(٣) المسند : (٤/١٠٣) .

وفي المسند أيضاً عن عدى بن حاتم يقول : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : « يا عدى أسلم تسلم » فقلت : إنى من أهل دين ، قال : « أنا أعلم بدينك منك » ثم قال : « إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رأتهم العرب أتعرف الحيرة ؟ » ، قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : « فالذى نفسى بيده ليتمنَ اللَّهُ هذَا الْأَمْرُ حَتَّى تُخْرِجَ الظُّعِنَيْنَ مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تُطْوَفَ بِالْبَيْتِ مِنْ غَيْرِ جُوَارٍ أَحَدٌ ، وَلَتُفْتَحِنَ كُنُوزَ كُسْرَى بْنِ هَرْمَزٍ » ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم كسرى بن هرمز ، ولبيذلن المال حتى لا يقبله أحد » ، قال عدى : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها ^(١) ، وروى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهر حتى تبعد اللات والعزي » ، فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عزَّ وجَّلَ ^{﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ۚ ﴾} الآية أن ذلك تام ، قال : « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عزَّ وجَّلَ [،] ثم يبعث الله ريحًا طيبة ، فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة

(١) أحمد في المسند : (٤/٢٥٧) .

خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم » (١) .

وهذا المعنى تكرر في سورة الصاف حيث يقول تعالى : « يُرِيدُونَ لِيُطْفَئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتَمَّنٌ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىَ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » (٢) .

وفي سورة الفتح قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىَ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا » (٣) .

ومن المبشرات القرآنية قوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٤) .

يقول ابن كثير : « هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلاح البلاد ، وتخضع لهم العباد ،

(١) مسلم في كتاب (الفتنة وأشرطة الساعة) ، حديث (٧٢) .

(٢) الصاف : ٩ ، ٨ (٣) الفتح : ٢٨ (٤) التور : ٥٥

وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً وحکمًا فيهم ، وقد فعله تبارك
وتعالى ، ولو الحمد والمنة ، فإنه صلی الله عليه وسلم لم يمت حتى
فتح الله عليه مكة وخیر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، وأرض
اليمن بكمالها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض
أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، وصاحب مصر
إسكندرية وهو المقوقس ، وملوك عُمان ، والتاجاشي ملك الحبشة ،
الذى تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه .

ثم لما مات رسول الله صلی الله عليه آلله وسلم واختار الله له ما
عنه من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فلمَّا
شعث ما وهى بعد موته صلی الله عليه وسلم ، وأخذ جزيرة العرب
ومهدها ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن
الوليد رضى الله عنه ، ففتحوا طرقاً منها ، وجيشاً آخر صحبه أبي
عبيدة رضى الله عنه ومن أتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثاً
صحبة عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله
للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران
وما والاها .

وتوفاه الله عَزَّ وجَلَّ ، واختار له ما عنده من الكرامة ، ومنَّ
على أهل الإسلام بأنَّ أللهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق ،
فقام بالأمر بعده قياماً تماماً ، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في
قوة سيرته ، وكمال عدله ، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ،
وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكسر كسرى ، وأهانه
غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده

عن بلاد الشام ، وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكي صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية - دولة عثمان بن عفان - امتدت المالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض وغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها وغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » فها نحن نقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فسائل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا » أ.ه.

وهذا الوعد الإلهي للمؤمنين وعد دائم ومستمر ، وما تحقق في عهد الخلفاء الراشدين من نصر وتمكن ، يمكن أن يتحقق لمن بعدهم ، فإن وعد الله تعالى لا يختلف ، قال تعالى : « وَكَانَ وَعْدُ رَبِّ حَقًّا » (١) ، ووعد الله هنا مشروط بالإيمان وعمل الصالحات وعبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، قال تعالى : « يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا » (٢) .



● قصص الرسل وعاقبة المؤمنين والمكذبين :

ومن المبشرات القرآنية ما قصه علينا القرآن من قصص الرسل والمؤمنين وأقوامهم ، ومخالفتهم من المشركين ، وكيف كانت العاقبة للرسول والذين آمنوا معه ، وكان الهلاك والدمار للذين ترددوا على الله وكذبوا المرسلين .

ومن ذلك : قصة موسى وقومه وفرعون وملئه ، وكيف حول الله بنى إسرائيل على يد موسى من حال إلى حال ، وأغرق فرعون وجنوده ، وحقق الله إرادته في تمكين المستضعفين ، وإدالله دولة الطاغيين التجبرين .

اقرأ هذه الآيات من سورة القصص :

﴿إِنَّ فَرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعَةً ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ، يُذْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِّنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (١) .

فسخر القدر الأعلى من فرعون وملئه وجنده ، فقد كان يذبح أبناء بنى إسرائيل حتى لا يظهر منهم من يزول ملكه على يديه . فإذا

(1) القصص : ٤ - ٦

الطفل الموعود يدخل قصر فرعون ببارادته وينشاً ويترعرع فيه وتحت سمعه وبصره ، وهو لا يدرى ، كما قال تعالى :

﴿ فَالْتَّقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (١) .

وكان ما كان من أمر موسى وفرعون مما قص علينا القرآن تفصيلاً ، وبعث الله موسى رسولاً إلى فرعون وقومه ، ومعه أخوه هارون ، وكان لقاء وتحدى انتهى بهزيمة فرعون على أيدي سحرته أنفسهم ، الذين خروا ساجدين وقالوا :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٢) .

وجن جنون فرعون ، وهدد وتوعد ، وأرغى وأزيد . وأوحى الله إلى موسى أن أسر عبادي ليلاً إنكم متبعون . ﴿ فَأَرْسَلَ فَرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاسِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرُّذَمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ * فَآخِرَ جَنَاحِهِمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ * وَكَنْزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثَنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٣) .



(١) القصص : ٨ (٢) الأعراف : ١٢١ ، ١٢٢

(٣) الشعراة : ٥٣ - ٥٩

● وعد الله بنصر المؤمنين وإنجائهم والدفاع عنهم :

ومن المبشرات القرآنية : وعد الله المؤمنين بالنصر والنجاة والدفاع
والولاية والمعية ، على وجه العموم .

إقرأ قوله تعالى : « وَكَانَ حَقًا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » (١) ،
« ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًا عَلَيْنَا نُنْجِي
الْمُؤْمِنِينَ » (٢) ، « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا » (٣) .
« اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » (٤) .
« وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُؤْمِنِينَ » (٥) .

ويتأكد هذا الوعى الإلهى عند حلول المحن والشدائد بساحة
المؤمنين ، حين تمسهم البأساء فى الأموال ، والضراء فى الأبدان ،
والزلزلة فى النفوس ، هناك يكون النصر أقرب ما يكون من المؤمنين ..

كما قال تعالى : « أَمْ حَسِبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتُكُمْ مَثُلُ
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولُونَ
رَسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَّ نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » (٦) ،

٣٨ (٣) الحج :

١٠٣ (٢) يونس :

٤٧ (١) الروم :

٢١٤ (٤) البقرة :

١٩ (٥) الأنفال :

٢٥٧ (٦) البقرة :

يقول الرسول والمؤمنون من قومه : متى نصر الله ؟ استبطاء لمجيء النصر ، وكان الإنسان عجولاً ، وهنا يطمئنهم الله بهذه الجملة الفاصلة التي ختم بها الآية الكريمة ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ . ولكنه لا يعدل بعجلة أحدهنا ، وكل شيء عنده بمقدار ، وبأجل مسمى ، لا يستأخر ولا يستقدم .

وقال تعالى في خواتيم سورة يوسف : ﴿هَتَنِي إِذَا اسْتَيَّاسَ الرُّسُلُ وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌ مَّا نَشَاءُ ، وَلَا يُرِدُّ بِأَسْنَانَهُمْ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١) .

فانظر إلى هذه الصيغة ودلالتها ﴿اسْتَيَّاسَ الرُّسُلُ﴾ من طول ما ارتقبوا النصر ، فلم يجيء في الوقت الذي كانوا يرغبونه ﴿وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ الضمير في قوله : ﴿ظَنَّوا﴾ يعود إلى الأقوام الذين أرسل إليهم الرسل ، وذكروا في الآية السابقة ، فهم ظنوا أن الله أخلف رسلاً ما وعدهم ، ولم يصدقهم الوعد .

وهنا تكون المفاجأة بعد الاستياس من جانب الرسل وظن السوء من جانب أقوامهم المشركين ﴿جَاءَهُمْ نَصْرٌ مَّا نَشَاءُ﴾

فهو يأتي أحوج ما يكون الناس إليه ، وأرغب ما يكون في وصوله : ﴿وَلَا يُرِدُّ بِأَسْنَانَهُمْ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فهذا من سن

(١) يوسف : ١١٠

الله مع المجرمين : ملاحقتهم بالباس الإلهي حتى يؤذبهم ويعرفهم
بمقدار أنفسهم ، ويختفف من غلوائهم .

ومن ثم استقر في عقول المسلمين وقلوبهم : أن الأزمة كلما
اشتدت وتفاقمت آذنت بالانفراج ، وأن أحلك سوييعات الليل سواداً
هي السوييعات التي تسبق الفجر ، وفي هذا قال الشاعر :

اشتدى أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج !

وقال الآخر :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعاً ، وعند الله منها المخرج !

ضاقت ، فلما استحکمت حلقاتها
فرجت ، وكنت أظنها لا تفرج !

* *

● وعد الله بإحباط كيد الكافرين ومؤامراتهم :

يكمل وعد الله بنصر المؤمنين : وعده سبحانه بإحباط كيد
الكافرين ، ومكرهم بالإسلام وأهله ، وجهودهم الدائبة لإطفاء
نوره ؛ وأنه تعالى سيرد كيدهم في نحورهم ، ويعيد سهامهم
المسمومة إلى صدورهم . وهو - جل شأنه - لا يخلف الميعاد .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا ﴾ (١)

وقوله تباركت أسماؤه : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جَئْتُمْ بِهِ السُّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطُلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٣)

وقال تعالى في بيان عاقبة بذلهم الأموال والجهود للصد عن الإسلام : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنْفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُعْلَبُونَ ﴾ (٤)

وقال : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتَغْلِبُونَ وَتُحَشِّرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبَشِّنَ الْمَهَادَ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةً فِي فَتَنَّ النَّقَاتَ ، فَتَهَقَّمُوا تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخَرَى كَافِرَةُ يَرَوْنَهُمْ مَثَلِيهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤْيِدُ بَنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَةً لِأُولَئِكَ الْأَبْصَارِ ﴾ (٥)

والفتتان المذكورتان في الآية الكريمة هما : فئة المؤمنين وفئة

(١) الطارق : ١٥ - ١٧

(٢) الأنفال : ٣٠

(٣) يونس : ٨١ ، ٨٢

(٤) آل عمران : ١٢ ، ١٣

(٥) الأنفال : ٣٦

المشركين في بدر ، وقد نصر الله المؤمنين - وهم أقل عدداً ، وأضعف عدة واستعداداً - على المشركين ، بما منحهم الله من إيمان وثبات ، وما أنزل عليهم من جنده ، وما قذف في قلوب أعدائهم من رعب ، وما عملت فيهم يد القدر الأعلى بما هو فوق الأسباب المعتادة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ، وَلَيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بِلَاءَ حَسَنَا ﴾ (١) .

وقال تعالى في شأن جلاء بنى النصیر من اليهود : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَسْرِ ، مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنَّوْهُمْ أَنَّهُمْ أَنْوَهُونَ وَوَكِّهُ حَصُونَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حِيثُ لَمْ يَحْسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ ﴾ (٢) .

إنها يد الله ، تعمل بالأسباب ، ومن غير الأسباب ، وهي مع المؤمنين دائمًا وأبداً ، حتى يتتصروا وتعلو بهم كلمة الله .



(١) الأنفال : ٢٧

(٢) الحشر : ٢

● فسوف يأتي الله بقوم يحبهم :

ومن المبشرات القرآنية : ما ذكره الله تعالى في سورة المائدة ، مهدداً المرتدین المارقين من الدين ، بأنهم لن يضروا دين الله شيئاً ، ولن ينهضم الدين بارتدادهم عنه ، فقد تكفل سبحانه بأنه يدخل لهذا الدين جيلاً من المؤمنين الأقوياء ، يقاومون الردة والمرroc ، ويقيمون الدين في أنفسهم : علاقة وثيقة - بل علاقة حب - بينهم وبين ربهم ، وعلاقة تعاطف ورحمة مع أهل الإيمان ، وعلاقة عزة وقوة مع أهل الكفر والطغيان ، وعلاقة جهاد ونضال مع أهل الشر والمنكر ، فهذه أوصافهم الأساسية التي أبرزها القرآن في معرض البشارة للمؤمنين ، والنذارة للمرتدین :

يقول تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذْلَلَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَزَةً عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّا إِنْ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (١)

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة : إنه من تولى عن نصرة دينه ، وإقامة شريعته ،

(١) المائدة : ٥٤

بأن الله سيبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة وأقوم سبيلاً ،
كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبُكُمْ أَيْهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٣) . أى ليس بمعنٰى ولا صعب .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ :

(أى لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، وإقامة الحدود ،
وقتال أعدائهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يردهم عن
ذلك راد ، ولا يصدّهم عنه صاد ، ولا يحييك فيهم لوم لائم ولا
عذل عاذل . وذكر ابن كثير هنا حديث أبي ذر - الذي رواه الإمام
أحمد - قال رضي الله عنه : أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم
بسبع .. وذكر منها : وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً ، وأمرني
ألا أخاف في الله لومة لائم) (٤) .

* * *

(٢) النساء : ١٣٣

(١) محمد : ٣٨

(٣) إبراهيم : ١٩ ، ٢٠ ، وفاطر : ١٦ ، ١٧

(٤) انظر : تفسير ابن كثير : ج ٦٩/٢ ، ٧٠ - طبعة عيسى الحلبي .

● سُنْرِيْهِمْ آيَاتِنَا :

وَمِنَ الْمُبَشِّرَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿سُنْرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ﴾ (١)

وهذا وعد من الله تعالى ، يبرز منه في كل زمان ما نشهده بأعيننا ،
وما نسمعه بآذاننا ، وما نحسه بقلوبنا .

ومن جملة ذلك : ما نراه في عصرنا من دراسات من أهل العلم
الطبيعي والرياضي ، لبيان أوجه جديدة للإعجاز العلمي في القرآن ،
وفي بعض هذه الدراسات نظرات جيدة وعميقة اعترف بها عدد من
غير المسلمين .



(١) فصلت : ٥٣

المبشرات من السنة النبوية

وفي السنة النبوية والسيرة النبوية : مبشرات كثيرة وفيرة ، من بنا ذكر بعضها فيما نقلناه عن الحافظ ابن كثير .
وهذه المبشرات النبوية قد حفلت بها دواوين الحديث الشريف ، من الصاحب والسنن والمسانيد والمعاجم والأجزاء ، وغيرها من المصنفات الحديثية .

ولكن المسلمين - في عصور التراجع والتخلّف - أغفلوها ونسوها ، ولم يذكروا إلا أحاديث الفتن وأشراف الساعة ، وقد فهموها فهما يوحى باليأس من صلاح الحال ، ومن كل عمل ينهض بالأمة من عثرتها ، ويجهد في تغيير الواقع إلى ما هو أحسن وأمثل .
ولا يعقل أن يصدر من هادي الأمة أن يبطئها عن محاولة الإصلاح ، وإرادة التغيير .

وكل هذه المبشرات إخبار بمستقبل الإسلام ، وأن الغد له ولأمه ، أخبر بها من لا ينطق عن الهوى .

وأود أن أذكر بأن الرسول الكريم لا يعلم الغيب بذاته ، فالله وحده هو الذي يعلم الغيب بذاته ، كما قال عز وجل : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » (١) .

(١) النمل : ٦٥

وإنما يعلم الرسول من الغيب ما أعلمه الله تعالى به ، فهو يخبر به
كما أعلمه الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ
عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾^(١) .

وسنذكر أهم هذه المبشرات في الصحائف التالية :

* *

١ - انتشار الإسلام في العالم كله :

من هذه المبشرات : ما رواه تيم الداري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليبلغن هذا الأمر (يعني أمر الإسلام) ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وير ، إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر »^(٢) .

ومعنى بلوغه ما بلغ الليل والنهار : انتشاره في الأرض كلها ، حيث يبلغ الليل والنهار ، ودخول هذا الدين الحواضر والبوادي ، فالحواضر هي التي بيotta من مدر (أي من حجر) ، والبوادي هي التي بيotta من وير وشعر ، وسيدخل الإسلام جميعها ، وبهذا

(١) الجن : ٢٦ ، ٢٧

(٢) رواه أحمد في مسنده : (٤ : ١٠٣) ، وأورده الهيثمي في المجمع ،
وقال : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح : (١٤/٦) ،
وفيه أغلاظ مطبعة .

يتحقق وعد الله تعالى في كتابه : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولًا
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُمْ ۚ » وذلك في ثلاثة
آيات : في التوبة : ٣٣ ، وفي الفتح : ٢٨ ، وفي الصاف : ٩ .

ومعنى ظهوره على الدين كله ، غلبه على جميع الأديان ، وفي
القرون الإسلامية الأولى غالب الإسلام على اليهودية والنصرانية
والوثنية العربية والمجوسية الفارسية ، وبعض أديان آسية وأفريقية ،
ولكنه لم يتصر على جميع الأديان ، فلا زلنا ننتظر هذه البشرة ،
ولن يخلف الله وعده .

وأكيد هذه البشرة : ما رواه المقداد بن الأسود ، قال : سمعت
رسول الله ﷺ يقول : « لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر
ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام ، بعز عزيز ، أو بذل
ذليل .. » (١) الحديث .

* * *

٢ - عودة الإسلام إلى أوربة وفتح رومية :

ومن هذه المبشرات ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي قبيل قال :

(١) رواه أحمد : (٤/٦) ، والطبراني : ٦٠١/٢٠ ، وابن حبان (٦٦٩٩) ،
الحاكم : (٤/٤٣٠) ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ،
وأورده الهيثمي : (٦/١٤) ، ويبدو أن في الكلام سقطاً ، فقد قال : ورجال
الطبراني رجال الصحيح ، مما يدل أنه قال : رواه أحمد والطبراني .

كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل : أى المديتين تفتح أولاً :
القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصدقه له حلق ، قال :
فأخرج منه كتاباً ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول
الله ﷺ نكتب ^(١) ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المديتين تفتح
أولاً : قسطنطينية أو رومية ؟ فقال : « مدينة هرقل ^(٢) تفتح
أولاً ! » ^(٣) .

(١) يدل هذا على أن تدوين الحديث أو كتابته بدأ منذ عهد النبي ﷺ ،
وعلى ذلك أدلة كثيرة ، ومن المعروف أن عبد الله بن عمرو كان له صحيفة
يكتب فيها تسمى (الصادقة) ولعلها هي التي كانت في الصندوق ذي
الحلق. الذي أخرجه ليجيب السائل .

(٢) هرقل هو الإمبراطور الذي كان يحكم دولة الروم البيزنطية في عهد
البعثة المحمدية ، وهو الذي أرسل إليه النبي ﷺ كتابه الشهير يدعوه فيه
وشعبه إلى الإسلام . وهو الذي أحضروا إلى مجلسه أبا سفيان قبل إسلامه ،
وسأله عن النبي ﷺ ودعوه أسئلة دقيقة تدل على ذكائه وعقله ، وتبين له منها
صدق النبي ﷺ ولكن حين اختبر من حوله فوجد منهم صدوداً ونفرة عن
الإسلام غلب حب ملكه على أتباع الحق ، وباع الدين بالدنيا ، وقد بقى إلى
أن فتحت سوريا في عهد عمر رضي الله عنه فغادرها وهو يقول : سلام
عليك يا سوريا ، سلام لا لقاء بعده ! .

(٣) رواه الإمام أحمد في مستنه ، حديث (٦٦٤٥) ، وقال الشيخ شاكر :
إسناده صحيح ، وأورده الهيثمي في المجمع : (٦/٢١٩) ، وقال : رواه
أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير أبي قبييل ، وهو ثقة ، وذكره الألباني
في سلسلته الصحيحة برقم (٤) .

ورومية هي : روما عاصمة إيطاليا الآن ، والقسطنطينية هي : إسطنبول الآن ، يفهم من السؤال أن الصحابة كانوا قد علموا قبل ذلك أن الإسلام سيفتح المدينتين ، ويدخل أهلهما في دين الله ، ولكن يريدون أن يعرفوا : أي المدينتين تسبق الأخرى ، فأجابهم أن مدينة هرقل - وهي القسطنطينية - ستفتح أولاً .

وقد تحقق ذلك على يد الفتى العثماني الطموح (محمد بن مراد) ابن الثالثة والعشرين ، الذي عُرف في التاريخ باسم (محمد الفاتح) ، وفتحت (مدينة هرقل) في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ، وبالتحديد : في يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ - ٢٩ آيار (مايو) سنة ١٤٥٣ م .

وبقي الجزء الثاني من البشري : فتح رومية ، وبه يدخل الإسلام أوروبا مرة أخرى بعد أن طرد منها مرتين : مرة من الأندلس ، ومرة من البلقان .

وظنى أن هذا الفتح سيكون بالقلم واللسان ، لا بالسيف والسنان ، وأن العالم سيفتح ذراعيه وصدره للإسلام ، بعد أن تشقيه الفلسفات المادية (الأيديولوجيات) الوضعية ، ويتطلل إلى مدد من السماء ، وهدى من الله ، فلا يجد إلا الإسلام طوقاً للنجاة .

و(الفتح السلمي) له أصل في الإسلام ، فقد سمي الله تعالى صلح الخديبية فتحاً ، بل « فتحاً مبيناً » وأنزل في ذلك سورة (الفتح) :

وفيها يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا .. ﴾ وسائل الصحابة رسول الله ﷺ : أفتح هو يا رسول الله ؟ فقال : نعم هو فتح .

* * *

٣ - اتساع دولة الإسلام في المشارق والمغارب :

ومن هذه المبشرات ما رواه مسلم وغيره عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيلغ ملکها ما زوى لى منها ، وأعطيت الكترين : الأحمر والأبيض .. » الحديث (١) .

ومعنى (زوى لى الأرض) : أي قبضها ، وضمّها وجمعها له عليه الصلاة والسلام حتى يراها جملة واحدة .

وهذا الحديث يبشر باتساع دولة الإسلام حتى تشمل المشارق والمغارب ، أي : الأرض كلها ، فإذا كان حديث تميم الداري ، وحديث المقداد السابقان - يؤذنان بانتشار دعوة الإسلام ، وعلو كلمة الإسلام ، فهذا الحديث يبشر بقوة دولة الإسلام واتساعها ، بحيث تضم المشارق والمغارب ، التي رأها النبي ﷺ ، وبهذا تلتقي

(١) الحديث رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم (٢٨٨٩) ، وأبو داود (٤٢٥٢) ، والترمذى (٢٢٠٣) ، وابن ماجه (٣٩٥٢) .

قوة الدعوة ، وقوة الدولة ، وبعبارة أخرى : قوة القرآن وقوة السلطان ، وفي هذا من الخير ما فيه .

* *

٤ - الرخاء والأمن وفيض المال :

ومن هذه المبشرات : ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً » وزاد أحمد في روايته : « وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق » (١) .

ومنها : ما رواه أبو هريرة أيضاً عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثرون فيكم المال وفيض المال ، حتى يُهم رب المال من يقبل منه صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب لى » (٢) .

يؤكده حديث أبي موسى مرفوعاً : « ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ! ثم لا يجد أحداً يأخذها منه » (٣) .

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم (١٠١٢ ، ٦٠) ، وأحمد : (٣٧١ ، ٣٧٠ / ٢) .

(٢) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٥٩٤) .

(٣) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٥٩٣) .

ومثله حديث حارثة بن وهب مرفوعاً : « تصدقوا ، فإنك يأتى عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها ، يقول الرجل : لو جئت بها بالأمس لقبلتها ، فأما اليوم فلا حاجة لى بها » (١) .

وهذا كله دليل على ظهور الرخاء ورغد العيش ، وزوال الفقر من المجتمع ، بحيث لا يوجد فيه فقير يستحق الصدقة أو يقبلها . وهذا من بركات عدل الإسلام ، وأثر الإيمان والتقوى في حياة الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) .

* * *

٥ - عودة الخلافة على منهاج النبوة :

ومن هذه المبشرات : ما رواه حذيفة بن اليمان عنه - صلى الله عليه وسلم - قال :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جباريا ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا

(١) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٥٩٢) . (٢) الأعراف : ٩٦

شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة » ثم سكت ؟ (١) .

والملك العاض - وفي رواية : العضوض - هو الذي يصيب الناس فيه عسف وظلم كأنه له أنياباً تعصى . أما ملك الجَبَرِية فهو القائم على الجبروت والطغيان ، أشبه بالحكم العسكري المستبد في عصرنا .

فهذا الحديث يبشر بانقضاض عهود الاستبداد والظلم والطغيان ، وعودة الخلافة الراشدة ، المتبعة لنهاج النبوة في إقامة العدل والشورى ، ورعاية حدود الله وحقوق العباد .

* * *

٦ - الانتصار على اليهود :

ومن هذه المبشرات : ما رواه ابن عمر رضي الله عنهمما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقاتلكم اليهود ، فسلطون عليهم ، ثم يقول الحجر : يا مسلم ، هذا يهودي ورائي ، فاقتله » (٢) .

ومثله ما رواه أبو هريرة مرفوعاً : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل

(١) رواه أحمد : (٤/٢٧٣) ، وقال الهيثمي في « المجمع » : (٥/١٨٩) : رواه أحمد ، والبزار أتم منه ، والطبراني بعضه في الأوسط ، ورجاه ثقات .

(٢) متفق عليه : المؤلم والمرجان (١٨٤٩) .

ال المسلمين اليهود ، فيقتلهم المسلمين ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ؟ يا عبد الله ؟ هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقتله » (١) .

فهل ينطق الحجر والشجر بلسان المقال - آية من آيات الله ، وما ذلك على الله بعزيز - أو ينطقوان بلسان الحال ؟ بمعنى أن كل شيء يدلّ على اليهود ، ويكشف عنهم .

وأيا كان المراد ، فالمعنى أن كل شيء سيكون في صالح المسلمين ، وضد أعدائهم اليهود ، وأن النصر آتٍ لا ريب فيه ، وأن أسطورة (القوة التي لا تقهـر) التي يشيـعها اليهود لن تستـمر ، وأن الذين اغتصـبوا فلسطين بـقـوـة السلاح ، وسلاـح القـوـة ، سيـخـذـلـهـم الله ، الذى يملـى للظـالـمـين ، ثم يـاخـذـهـم أـخـذـا أـلـيـمـا شـدـيدـاً ، ولـن تـغـنـى عنـهـم تـرـسـانـتـهـم النـوـرـيـةـ الـتـى يـدـلـلـونـ بـهـا ، كـمـا لـم تـغـنـ حـصـونـ أـسـلـافـهـمـ مـنـ بـنـىـ النـصـيـرـ عـنـهـمـ شـيـئـاً ، حين جاءـهـمـ بـأـسـ اللهـ الـذـى لـا يـرـدـ عنـ الـقـوـمـ الـمـجـرـمـينـ ، كـمـا قـالـ تـعـالـىـ فـىـ شـائـنـهـمـ : « هـوـ الـذـى أـخـرـجـ الـذـينـ كـفـرـوـا مـنـ أـهـلـ الـكـتـابـ مـنـ دـيـارـهـمـ لـأـوـلـ الـحـشـرـ ، مـا ظـنـنـتـمـ أـنـ يـخـرـجـوـا ، وـظـنـنـوـا أـنـهـمـ مـاـنـعـتـهـمـ حـصـونـهـمـ مـنـ اللهـ ، فـأـتـاهـمـ اللهـ مـنـ حـيـثـ لـمـ يـحـسـبـوـا وـقـدـفـ فـيـ قـلـوبـهـمـ الرـعـبـ ،

(١) رواه مسلم في صحيح الجامع الصغير (٧٤٢٧) .

يُخْرِبُونَ بِبُوْتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى
الْأَبْصَارِ » (١) .

* * *

٧ - بقاء الطائفة المنصورة :

ومن هذه المبشرات : ما رواه عدد من الصحابة رضي الله عنهم ،
مثل ما رواه معاوية عنه رضي الله عنه قال :

« لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من
خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على
الناس » (٢) .

وقد صح هذا الحديث من روایة عمر والمغيرة وثوبان وأبی هريرة
وقرة بن إیاس وجابر وعمران بن حصین وعقبة بن عامر (٣) ، وجابر
ابن سمرة (٤) . وأبی أمامة ، الذى قال : قال رسول الله صلی الله
عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين ،
لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم ، إلا ما أصابهم من لآواء

(١) الحشر : ٢

(٢) رواه أحمد والشیخان - صحيح الجامع الصغیر (٧٢٩٠) .

(٣) انظر أحادیثهم فی صحيح الجامع الصغیر من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦) .

(٤) صحيح الجامع الصغیر (٤٧٧٠) .

حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك » . قالوا : يا رسول الله ، وأين هم ؟ قال : « بيت المقدس وأكناف بيت المقدس » ^(١) .

ومعنى هذه الأحاديث كلها : أن الخير سيستمر في هذه الأمة ، وأنها لا تخلي من قائم الله بالحجارة ، ومن ناصر للحق ، مستمسك به ، حتى تقوم الساعة ، وأن هذه الطائفة المنصورة باقية حتى يأتي أمر الله ، وإن أصابها ما أصابها من لأواء وأذى .

يؤكد هذا ما رواه أبو مالك الأشعري قال : قال رسول الله عليه السلام : « إن الله أجاركم من ثلاثة خلال : ألا يدعون عليكم نبيكم فتهلكوا جميعاً ، وألا يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وألا تجتمعوا على ضلاله » ^(٢) .

* * *

٨ - ظهور المحدثين في كل قرن :

ومن هذه المبشرات : ما رواه أبو هريرة عن رسول الله عليه السلام قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لها دينها » ^(٣) .

(١) المستند : (٢٦٩/٥) ، وفيه قال عبد الله : وجدت بخط أبي .. الحديث ، وأورده الهيثمي وعزاه إلى المسند والطبراني : قال : ورجاله ثقات : (٢٨٨/٧) .

(٢) رواه أبو داود في الفتن (٤٢٥٣) .

(٣) رواه أبو داود في كتاب الملاحم (٤٢٩١) ، والحاكم وصححه .

وكلمة (من) في الحديث تشمل (المفرد) كما قالوا عن عمر ابن عبد العزيز والشافعى والغزالى ، كما تشمل الجمع ، كما ذهب إليه بعض الشراح ، وهو ما نختاره ، فقد يكون المجدد جماعة دعوية أو تربوية أو جهادية ، وهنا يكون سؤال المسلم : ما دورى فى حركة التجديد ؟ بدل أن يكون كل همه انتظار ظهور المجدد ، وهو لا حول له ولا قوة !^(١)

* * *

٩ - نزول المسيح :

ومن المبشرات التى صحت بها السنة : نزول المسيح عيسى ابن مريم فى آخر الزمان حاكماً بشرعية الإسلام ، خليفة لمحمد رسول الله وخاتم النبيين .

وقد ذكر المحققون من علماء الحديث أن الأحاديث التى وردت فى هذا الشأن بلغت حد التواتر ، الذى يثبت به العلم اليقينى .

وقد ذكر منها العلامة مولانا أنور الكشمیری أربعين حديثاً ما بين صحيح وحسن - بخلاف الضعيف - فى كتابه (التصریح بما تواتر

(١) انظر : حديثنا عن (تجديد الدين فى ضوء السنة) فى كتابنا (من أجل صحة راشدة) طبع المكتب الإسلامي بيروت ، ودار البشير بطنطا بمصر .

فى نزول المسيح) الذى حرقه صديقنا العلامة الشيخ عبد الفتاح
أبو غدة .

ومن آمن بقدرة الله تعالى ، التى لا يعجزها شيء فى الأرض
ولا فى السماء ، وعرف آيات الله تعالى فى الكون ، وأياته التى أيد
بها رسle ، لم يصعب عليه أن يؤمن بنزول المسيح من السماء ، بعد
أن رفعه الله إليها ، حين أراد أعداؤه قتله وصلبه عليه السلام ، كما
قال تعالى : «**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**» (١) ،
وحتى لو قلنا كما قال بعضهم : إن المسيح مات ، فليس بعيداً
ولا غريباً أن يبعثه الله ويحييه ، آية خلقه ، كما كان هو يحيى الموتى
يإذن الله .

* * *

١٠ - ظهور المهدى :

ومن المبشرات المشهورة فى السنة : الأحاديث التى جاءت فى
شأن ظهور المهدى ، وال الصحيح منها الذى لا اعتراض عليه ، ولا
ينبغى أن يخالف فيه مخالف : أن هناك حاكماً مسلماً ملتزماً
بالإسلام ، سيظهر بعد عهود جور وفساد ، يقيم دين الله فى
الارض ، ويلؤها عدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً . أما الخلاف

(١) النساء : ١٥٨

فهو في نسبة واسم وشكله وصورته ، وقت ظهوره ، وهذا لا يهمنا . إنما الذي يهمنا هو الفكرة نفسها ، وهي مسلمة ، وهي إحدى البشائر النبوية ، وحسبنا هنا الحديث الذي رواه أبو داود عن على رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، بعث الله رجالاً منا ، يملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً » (١) .

وروى الحاكم عن أبي سعيد مرفوعاً : « لا تقوم الساعة حتى تغلاً الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً ، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملؤها قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً وعدواناً » (٢) .

وقد بالغ بعض المتأخرین من المؤلفین فی علم التوحید ، فأدخلوها فی (العقائد) التي يجب الإيمان بها .

وفي رأى أنه لا ضرورة للتوضیح فی العقائد التي يطلب الإيمان بها من عموم الناس : وحسبنا ما جاء به القرآن من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأضافت إليه السُّنَّةُ الإيمان بالقدر ، وهو جزء من الإيمان بالله تعالى ، ولذا لم يفرده القرآن بالذكر .

* * *

(١) رواه أبو داود في كتاب المهدى (٤٢٨٣) ، وسكت عنه هو والمذري ، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تخريج المسند ، وفيه فطر بن خليفة (٧٧٣) ، وقد ذكره في صحيح الجامع الصغير ، وزبادته (٥٣٠٥) .

(٢) رواه الحاكم وصححه على شرط الشیخین وواقفه الذہبی : (٤/٥٥٧) .

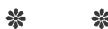
مبشرات من التاريخ

ولا تقف المبشرات بانتصار الإسلام عند النصوص القرآنية والحديثية المتوافرة ، والتي تملأ القلب يقيناً بأن الغد لهذا الدين العظيم. بل إننا نجد في وقائع التاريخ وأحداث الماضي : ما يعمر قلوبنا بالثقة والأمل في مستقبله ، برغم ما يقف في سبيله اليوم من عقبات ، وما يعوق صحوته من عوائق هائلة ، بعضها من صنع أعدائه في الخارج وأخرى من صنع خصومه في الداخل ، وأعجب شيء أن يكون هؤلاء الخصوم أو أكثرهم من يحملون اسم الإسلام ، ولكنهم - في الحقيقة - قد انضموا إلى صفوف محاربيه ، فلا يريدون للشريعة أن تحكم ، ولا لقيمه أن تسود ، ولا لكلمته أن تكون هي العليا .



● حقائقتان كبيرتان من التاريخ :

وحسينا من مبشرات التاريخ عامة ، وتاريخنا خاصة - الذي يبدأ بسيرة النبي ﷺ : حقائقتان كبيرتان في غاية الأهمية في موضوعنا الذي نبحثه .



● نزول النصر أحوج ما نكون إليه :

الحقيقة الأولى : أن النصر لا يأتي من عند الله إلا عندما يكون الناس أحوج شيء إليه ، وعندما يروا الناس من حولهم وقوتهم ، ويملؤون بحول الله تعالى وقوته ، وعندما تغلق الأبواب في وجوههم إلا بابه ، وتقطع الأسباب دونهم إلا أسبابه ، هناك يدعون دعاء المضطربين ، ويلجئون إليه لجوء المفترفين . وهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعا ، ولا يخيب من افتقر إليه ورجاه .

رأينا ذلك في هجرة النبي ﷺ ، وقد جأ إلى الغار ، فاختفى فيه هو وصاحبه أبو بكر ، وقد بحث المشركون عنهما حتى وصلوا إلى باب الغار ، وقال أبو بكر مشفقاً على صاحبه وعلى دعوته : يا رسول الله ؟ لو نظر أحدكم تحت قدميه لرأانا ! فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا أبو بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ .

وقد قص علينا القرآن كيف نصر الله رسوله في ذلك اليوم ، وبأى جند نصره . يقول تعالى : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجَنُودِ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلْمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلْمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلِيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١) .

(١) التوبية : ٤٠

ورأينا ذلك النصر في يوم بدر ، وقد كان المسلمين أقل من المشركين عدداً (كانوا أقل من ثلثهم) وأضعف عدّة (كان مع المسلمين فرسان ، ومع المشركين مائة فرس) وأضعف استعداداً وتهيئاً للحرب من الناحية النفسية ، فقد خرجو من بيوتهم للعبير لا للنفير ، فلم يكن القتال في نيتهم ، وفي هذا يقول القرآن :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارُهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَآتِمًا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظَرُونَ ﴾ (١) .

ومع هذا كان النصر للمؤمنين ، حين استغاثوا بالله فأغاثهم :

﴿ إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنَّى مُمْدُّكُمْ بِالْفَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلَتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) ، وكان الرسول ﷺ يدعو ربه في ذلك اليوم ، ويلح في الدعاء ، يقول :

« اللهم أنجز لي ما دعوت ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تبعد في الأرض بعد اليوم » !! وما زال يدعو حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وأبو بكر يقول له : والله يا رسول الله لينصرنك الله ، ولبيضن وجهك !

(٢) الأنفال : ٩ ، ٥ ، ٦

(١) الأنفال : ٦ ، ٥ ، ٩

لقد كانت يد الله الواحد القهار هي التي تدير المعركة من فوق سبع سموات ، هو الذي رتبها ، وهيأ مكانتها وزمانها : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدُتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقُضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، لَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيَحْيِي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

كانت يد القدر الأعلى وراء يد النبي ﷺ حين رمى بحفنة من الرمل في وجوه القوم ، وكانت وراء أيدي المؤمنين ، وهي تقتل المشركين كما قال تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (٢) .

ومن هنا امتن الله على رسوله وعلى المؤمنين بنصرهم في بدر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرْتُكُمُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ أَذْلَهُ ، فَاقْتُلُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ شَكُورُونَ ﴾ (٣) .

ورأينا ذلك النصر في يوم الخندق ، وقد اشتد الكرب على المسلمين ، حين غزاهم المشركون في عقر دارهم ، وحاصروهم حصاراً شديداً ، وحفروا الخندق ليحسموا من هجومهم ، وغدر بهم اليهود وانضموا إلى المهاجمين . وقد وصف القرآن حال

(١) الأنفال : ٤٢ (٢) آل عمران : ١٧ (٣) آل عمران : ١٢٣

المسلمين المادية والنفسية في هذا الوقت العصيب فقال : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مَنْ فَوْقُكُمْ وَمَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظَنَّوْنَ بِاللهِ الظُّنُونَ * هُنَالِكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلَّلُوا زِلْزاً شَدِيداً﴾ (١) .

وقد كشف المنافقون عن أنفعتهم ، وقال منهم ما قال : مما سجله عليهم القرآن :

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَيْنَ يَثْرَبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوهُ ، وَيَسْتَدِنُ فِرَيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴾ (٢) .

في هذه المحنة الخانقة ، وفي تلك الظروف الحالكة ، جاء نصر الله تعالى ، كما قال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٣) .

وقال أيضاً : ﴿وَرَدَ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (٤) .

(٢) الأحزاب : ١٢ ، ١٣

(٤) الأحزاب : ٢٥

(١) الأحزاب : ١١ ، ١٠

(٣) الأحزاب : ٩

وفي غزوة حُنین ، كان المسلمون جيشاً كبيراً ، وقد فتحوا مكة ، وانتصروا على قريش فغرتهم كثرةهم ، واعتزوا بعدهم ، فلقتهم الله درساً بليغاً حتى يفيقوا ، ويعلموا أن النصر من عند الله ، ومن لم ينصره الله فهو مغلوب ، ومن نصره الله فلن يغلب أبداً .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنِينٍ إِذْ أَعْجَبَتُكُمْ كُثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُذْبَرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وهكذا نجد أن نصر الله تعالى يتنزل على عباده المؤمنين ، حين تضيق بهم الحيل ، وتخذلهم أسباب الأرض ، فيمدون أكفهم إلى السماء .

وهذا أمر ثابت في تاريخ الرسالات كلها ، وفي تاريخ الرسل جميعاً ، كما بين ذلك القرآن في قوله في أواخر سورة يوسف : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيَّاسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءُهُمْ نَصْرٌ فَتُنْجَىٰ مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا يُرُدُّ بِأَسْنَانَهُمْ الْقَوْمُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

* *

(٢) يوسف : ١١٠

(١) التوبة : ٢٥ - ٢٧

● قوة الأمة عند الشدائـد :

والحقيقة الثانية التي عرفناها من تاريخنا : هو المخزون النفسي والروحي الكبير ، الذي تدخره الأمة ، ولا يبرز إلا في المحن والخطوب .

إن التاريخ يحدثنا أن في الإسلام (قوة ذاتية) مخبأة ، لا تبرز إلا عند حلول الشدائـد بساحتـه ، وإحاطـة المـحن بأمـته . فـهـنـاك نـراه أـصـلـب ما يـكـون عـوـدـاً ، وـأـعـظـم ما يـكـون صـمـودـاً ، وـأـشـدـ ما يـكـون قـوـة ، وـأـقـدـرـ ما يـكـون عـلـى تـفـجـير الطـاقـات المـكـنـونـة لأـمـته ، وـإـبـرـازـ ما خـبـيـئـ من قـوـتـه وـقـدـرـتـه ، فإذاـ هوـ يـقاـومـ فـيـصـمـدـ ، بلـ يـغـالـبـ فـيـغـلـبـ ، وإذاـ الـضـعـفـ الـظـاهـرـ الـذـي أـطـمـعـ النـاسـ قدـ اـسـتـحـالـ إـلـىـ قـوـةـ ، بلـ إـلـىـ قـوـةـ قـاـهـرـةـ مـتـصـرـةـ .

رأينا ذلك في فجر تاريخ الإسلام : في يوم بدر ، حيث انتصرت القلة على الكثرة ، والضعف المادي على القوة ، وامتن الله على المؤمنين بقوله : « وَلَقَدْ نَصَرْكُمُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ أَذْلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (١) .

« وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ

(١) آل عمران : ١٢٣

يَتَخَطَّفُكُمُ النَّاسُ فَأَوَّلُكُمْ وَأَيَّدُكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقُكُمْ مِّنَ الطَّيَّابَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (١) .

* * *

● في حروب الردة :

ورأينا ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وقد ارتدت قبائل العرب - فيما عدا المدينة ومكة والطائف - وظهر أدعية النبوة الكاذبة من كهنة العرب ، وتبعهم قبائلهم عصبية لهم ، على حد قولهم : كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مصر ! فكان مسلمة وسجاح والأسود العنسى وطلحة الأسدى ، وغيرهم ، وانضم إليهم مانعو الزكاة ، الذين أقرروا بالصلوة ولم يقرروا بالزكاة ، وكانت فتنة عارمة ، ومحنة قاسية ، جعلت بعض الصحابة يقول لأبي بكر : يا خليفة رسول الله ؛ لا طاقة لك بحرب العرب جميعاً ، الزم بيتك ، وأغلق بابك ، واعبد ربك ، حتى يأتيك اليقين !!

ولiken أبي بكر الرجل الرقيق البكاء أبي أن يستسلم ، وثبت كالطود ، وزأر كاللبيث ، وجهز أحد عشر جيشاً لحرب المرتدين ومانعى الزكاة ، ولما ناقشه عمر في مقاتلته ما نعى الزكاة . وقد قال النبي ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : (لا إله إلا الله)

(١) الأنفال : ٢٦

فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ». وهنا قال له أبو بكر في يقين وقوه : والله لا يقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عنافاً (عنزة صغيرة) - وفي رواية : عقالاً - كانوا يؤذونه لرسول الله لقاتلتهم عليه .

وأقام معارك بين الصحابة - على قلتهم - وبين المرتدين ومانعى الزكاة على كثرتهم - انتهت بانتصار المؤمنين على المارقين الذين رجعوا إلى حظيرة الإسلام تائبين مستغفرين ، مكفرین عن ردهم بالانضمام إلى صفوف المجاهدين في قتال فارس والروم . وكانوا من أعظم الناس بلاء فيه ، يعوضون عما بدر منهم في حق الإسلام .

وعادت جزيرة العرب حصناً ومعقلًا للإسلام ، على امتداد القرون .



● في الحروب الصليبية :

وظهرت القوة الكامنة في الإسلام مرة أخرى ، حين زحف عليه الغرب المسيحي بقضبه وقضيضه ، وثالوثه وصلبيه ، في تسعة حملات شهيرة عرفت باسم (الحملات الصليبية) .

جاء الغرب الصليبي الزاحف يحمل في صدره حقداً أسود على الإسلام وأهله ، وطمعاً في خيرات بلاده ، وأملاً في تحطيم قوته وميراث ملكه ، ساعده على ذلك غفلة المسلمين ، وغرق حكامهم في الشهوات . وتفرّقهم من أجل الدنيا ، وحرصهم على الإمارة ، واستعداد هؤلاء الأمراء التافهين أن يبيع أحدهم أخيه ويشتري الدخيل الغريب ، وأن يبيع أمته ويشتري إمارته .

فلا غرو أن يتتصر الصليبيون في أول الأمر ، وأن يقيموا لهم مالك وإمارات في ديار الإسلام ، بالتعاون مع الخونة من الأمراء ، وأن يدخلوا بيت المقدس ، بعد مذبحة قتل فيها عشرات الآلوف ، وجرت الدماء للركب .

وبقي الصليبيون في الشام نحو مائة عام ، وبقي بيت المقدس في أيديهم تسعة سنة كاملة .

ثم هيأ الله للإسلام رجالاً صمموا على أن يقاوموا العدوان ، وأن يستردوا الأرض المغتصبة ، ويستعيدوا الحق السليب ، فكان عماد الدين زنكي ، وابنه البطل نور الدين محمود الشهيد ، الذي كان يشبه بالخلفاء الراشدين في سيرته وشجاعته والتزامه وعدله ، وتلميذه القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي ، الذي كتب الله له النصر على الصليبيين في معركة (حطين) الشهيرة ، وفي معركة فتح بيت المقدس ، وإعادته إلى أمة الإسلام ، وكانت بعد ذلك

معارك فى مصر ، انتهت بأسر لويس التاسع فى (دار ابن لقمان)
بالمصورة .

وكل هذا دليل على أن الأمة الإسلامية قد تناهى ، وقد تمرض ،
ولكنها لا تموت ، ما دام يجرى في عروق أبنائها دم العقيدة ، وما دام
فيها من يقودها بـ (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) .

* * *

● في حروب التتار :

وكما تعرض الإسلام للغزو من الغرب على أيدي الصليبيين
الأوربيين النصارى ، تعرض للغزو من الشرق على أيدي التتار
الوثنيين . الذين هجموا على بلاد الإسلام كالريح العقيم ، ما تذر
من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم .

وقد ظهروا وال المسلمين ضعفاء متفرقون ، ليس لهم قيادة قوية
تجمع صفوفهم ، ولا نهضة إيجانية توقف شعوبهم ، وال تتار كانوا في
ذلك الزمن قوة عسكرية عاتية ، لها قيادة مهيبة مطاعة ، لا يقف في
وجوههم أولئك الملوك المزقون ، والأمراء المفرقون ، والولاة
المترفون ، فسقطت البلاد في أيديهم بلدًا بلدًا ، وفر الأمراء من
أمامهم - أو خضعوا لهم - أميرًا أميرًا ، والنصر يغرى بالنصر ،
والظفر يدفع إلى الظفر ، حتى كان مثل السائر في ذلك الزمان :

إذا قيل لك إن التتار قد انهزوا فلا تصدق ! إنها أسطورة (القوة التي لا تقهـر) تتكـرر ما بين عصر وآخر .

وأخـيراً زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد دار السلام ، وأرقى بلاد الإسلام ، فسقطت تحت ضرباتـهم وبـعـونـة من خـانـ من يـتسـبـونـ إـلـىـ إـلـاسـلامـ ، وـسـالـتـ الدـمـاءـ آـنـهـارـاًـ ، وـأـسـودـ نـهـرـ دـجـلـةـ مـنـ كـثـرـةـ مـاـ أـلـقـىـ فـيـهـ مـنـ كـتـبـ الـحـضـارـةـ ، الـتـىـ سـالـ مـدـاـهـاـ ، حـتـىـ أحـالتـ مـاءـ النـهـرـ أـسـوـدـ حـالـكـاـ .

ولم تكد تمضي سنوات ، حتى تحققت معجزة الإسلام مرتين : انتصر الإسلام على التتار عسكرياً ، في معركة من معارك التاريخ الخامسة ، وهي معركة (عين جالوت) بقيادة القائد المملوكي الصالح سيف الدين قطز ، الذي حقق الله على يده النصر ، ومعه جنود مصر ، في يوم من أيام الله في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، أي بعد سقوط بغداد بستين فقط .

وانتصر الإسلام مرة أخرى معنوياً ، فإذا هؤلاء الجبابرة الذين غزوا الإسلام يغزوهـمـ الإـلـاسـلامـ ، وإذا سـيفـ الغـارـىـ المـصـلـتـ يـسـقطـ أـمـامـ تـأـثـيرـ العـقـيـدـةـ إـلـاسـلامـيـةـ العـزـلـاءـ ، وإذا الـغـالـبـونـ يـدـخـلـونـ أـخـيرـاـ فـيـ دـيـنـ الـمـعـلوـبـينـ !! عـلـىـ خـلـافـ ماـ هـوـ مـعـرـوفـ وـمـأـلـوـفـ ، وـهـوـ مـاـ قـرـرـهـ اـبـنـ خـلـدونـ أـنـ الـمـغـلـوبـ هـوـ الـمـولـعـ دـائـيـاـ بـتـقـلـيدـ الـغـالـبـ المـتصـورـ ..

* *

● حروب التحرير في العصر الحديث :

وفي العصر الحديث ، رأينا الجهاد البطولى ، ضد الغزاة المستعمرین ، في سائر ديار الإسلام : جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ضد الفرنسيين في الجزائر ، والأمير عبد الكريم الخطابي ضد الأسبان في المغرب ، والبطل عمر المختار ضد الظليان في ليبيا ، والشيخ عز الدين القسام ضد الإنجليز واليهود في فلسطين ، مروراً بشورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي ، ومعارك فلسطين ضد الصهاينة ، والقناة ضد الإنجليز .

كما اعترف المؤرخون الغربيون أنفسهم - أمثال برنارد لويس في كتابه (الغرب والشرق الأوسط) - أن الحركات الدينية كانت هي قائدة معارك التحرير في سائر البلاد الإسلامية ضد الاستعمار ، حتى حركة كمال أتاتورك نفسها ، ولكن المؤسف أن المسلمين يزرعون ، والعلمانيين هم الذين يحصدون ، إنهم لصوص مدربون على سرقة ثمار الجهاد وثورات المجاهدين !



مبشرات من الواقع

وإذا تركنا التاريخ وما يحمله من مبشرات بالقوة الذاتية للإسلام ، والقوى المكنونة في كيان هذه الأمة ، والتى تبرز عند الشدائيد ، وعندما يوجد من يفجرها .. ونظرنا إلى واقع الأمة فى هذا العصر ، وجدنا مبشرات أخرى كثيرة ، جعلت هذه الأمة ثبتت فى وجه الأعاصير ، ولا تذوب فى غيرها ، كما يذوب الملح فى الماء ، كما كان يراد لها ، بل جاهدت وقاتللت حتى تحررت من مستعمرتها ، وعادت تشعر بكونيتها ، وتكتشف ذاتها من جديد ، رغم ما وضع لها من أغلال تكبلها ، وما صنع لها من أقفاص حديدية أو ذهبية تحبس داخلها .

* *

● أمراض الواقع وأفاته :

لا أستطيع أن أجحد ما يمور به واقع الأمة من أمراض وأفات عقلية ودينية وخلقية وعملية ، شكا منها الدعاة والمربون والمصلحون، ولا يزالون يشكون .

فقد ضعف الدين بين الغالى فيه والخافى عنه ، كما قال الإمام الحسن البصري ، أو بين (جامد وجاجد) ، كما قال أمير البيان

شكيب أرسلان . ذاك يصد الناس عن الإسلام بجموده ، والآخر يفتئهم عنه بجموده .

وضعف التوحيد الأصيل - الذي هو جوهر الإسلام وروح الوجود الإسلامي كله - بين خرافات العرافين ، وأباطيل الدجالين بين شرك العوام الذين يكادون يعبدون قبور الأموات ، وشرك الخواص الذين يكادون يعبدون قصور الأحياء !

وضعف الجانب الرباني في الحياة الإسلامية ، حين وجدها في المسلمين من يضيع الصلوات ، ويتبوع الشهوات ، وحين قال : ﴿الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعْلَمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(١) .

وظهر التصوف المنحرف ، والتصوف المحترف ، وقل التصوف الحقيقي المعبر عن روحانية الإسلام ووسطيته ، والذي عرفه بأنه : الصدق مع الحق ، والخلق مع الخلق^(٢) . وغلبت (رسوم) التصوف على (حقائقه) من ذكر باللسان من نوع ما قالت رابعة :

(١) المؤمنون : ١ - ٩

(٢) قد بدأنا بحمد الله وتوفيقه في كتابة سلسلة عن التصوف الملتزم أو (فقه السلوك في ضوء القرآن والسنّة) ظهر منها ثلاثة أجزاء : الحياة الربانية والعلم .. الية والإخلاص .. التوكل .. وأسائل الله العون على إتمامها .

استغفار يحتاج إلى استغفار منه . ومن أوراد موضوعة ، وحركات مصنوعة ، لا ترقق القلب ، ولا تذكر بالرب ، ولا بالدار الآخرة .

وضعفت الآداب والتقاليд الإسلامية الأصيلة في حياتنا الاجتماعية ، وغلب على الكثيرين نوعان من التقاليد المخالفة لحقائق الإسلام : تقاليد موروثة من رواسب عصور الجمود والتقليد والتخلف ، أصقت بالإسلام ، وليست منه في كثير ولا قليل ، وتقاليد وافدة ، جاءت بها الحضارة الغربية الغازية ، بما غلب عليها من مادية الفكر ، وعلمانية التوجه ، ونفعية السلوك ، كان لها أثراًها في إشاعة التحلل ، وترسيخ الفردية والأنانية .

وأبرز ما رأينا ذلك في (قضية المرأة) فوجدنا من تغطى وجهها حتى لا يرى منه شيء ، وقد تسمح - أو يسمح لها - بظهور عينيها أو إحداهمَا ! ومن تخرج إلى الطريق مكشوفة الذراعين والساقين والتحرر ، من « الكاسيات العاريات الميلات المائلات » . ووجدنا من يحرم الخاطب من رؤية مخطوبته - وهو مأمور بها شرعاً - ولا يراها إلا ليلة زفافه بها ، وهي تحرم من رؤيته كذلك .. ومن يترك له الحبل على الغارب ، ليتأبه ذراعها ، ويذهب بها إلى حيث يشاء في المسارح والسينمات أو المتنزهات والخلوات !

وضعف العقل الإسلامي ، فلم يعد يفكر ويبتكر ، ويضيف الجديد إلى الحضارة ، ويعدل القديم منها ، بل غداً عالة على غيره ، سواء

كان هذا الغير (المقدّسین فی التراث) أم كان (المقدسيين فی الغرب) . وطغى الجمود والتحجر على جنبات الحياة ، فغاب النظر فی العقيدة ، والاجتهاد فی الفقه ، والإبداع فی الأدب ، والابتكار فی الصناعة ، وذاعت كلمتان خطيرتان كان لهما تأثيرهما فی الحياة العقلية الإسلامية ، الأولى : ما ترك الأول للآخر شيئاً ! والثانية : ليس فی الإمكان أبدع مما كان !

وانتشرت دعوى إغلاق باب الاجتهاد ! ولا يُدرى : من أغلقه ؟ ومن يملك إغلاق باب فتحه الله تعالى ورسوله ﷺ !

ومن هنا تأخرت الأمة الإسلامية ، التي كانت الأمة الأولى ما يقارب الألف عام ، وأضحت فی مؤخرة القافلة بعد أن كانت فی مقدمتها ، فكل أقطارها داخل فی مسمى (البلاد النامية) أو (العالم الثالث) ، وبعضاها لو كان هناك عالم رابع لنسبوا إليه ، لما يعانون من شدة التخلف والفقر والمرض والجهل والأمية .

وضعف الخلق الإسلامي الأصيل ، بغياب (شعب الإيمان) التي بين لنا الرسول الكريم أنها (بعض وسبعون شعبة أعلاها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماتة الأذى من الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) ، وشاعت أخلاق النفاق فی مجتمعاتنا ، فوجدنا من « إذا حدت كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤمِنْ خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاَصَمْ فجر ». وانتشر الترف المدمر فی طبقة عاطلة يسر لها كل شيء ، والبؤس القاتل فی طبقات كادحة تتعب وتلهمث ، ولا تکاد

تجد شيئاً ، وانقلبت القيم الاجتماعية الإسلامية بظهور الغنى بغير جهد ، وظهور ملوك البترول ، ولصوص الانفتاح ، وأصبحت الصورة الكاريكاتورية للمسلم : عربي في خيمة ، وبجواره بئر بترول ، وفتاة جميلة !

وكثر الظلم في العالم الإسلامي : ظلم الحكام المحكومين ، وظلم الأغنياء الفقراء ، وظلم الأقوياء الضعفاء ، وظلم أرباب العمل العمال ، وظلم الرجال النساء ، والظلم لا تقوم عليه دولة ، ولا تنهض به أمة .

وضعفت الشورى - بل ربما غابت تماماً - في حياة المسلمين السياسية ، وحكم الناس فرعون وهامان وقارون ، بالحديد والنار تارة ، وبالغش والتزوير طوراً ، ولم يعد أئمة المسلمين خيارهم « الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم (أي تدعون لهم) ويصلون عليكم » ، بل كل متكبر جبار ، مطبوع على قلبه ، لا يخاف الله ولا يرحم الناس ، وبعضهم مطبوع على عقله كذلك ، فلا هو يفقه في الدين ، ولا هو يعقل في الدنيا ، ومع هذا إذا استفتي الناس في اختياره حصل على « التسعات » الأربع أو الخمس (٩٩٩ و ٩٩٪) التي أمست مثار سخرية العالم ، وبات الحاكم في البلاد العربية لا ينزعه عن كرسيه إلا الموت أو الاغتيال أو الانقلاب عليه !

* *

• الواقع المريض لا يستمر :

ولكن هذا الواقع الذى لا ينكر لم يترك يؤثر فى المسلمين دون مقاومة ، فهذا مناف لطبيعة الحياة الإسلامية ، وطبيعة الرسالة الإسلامية ، وطبيعة الأمة الإسلامية ، التى لا تجتمع على ضلاله ، ولا تزال فيها طائفة قائمة على أمر الله ، من يهدون بالحق وبه يعدلون . ولا يزال يبعث الله فيها أو يبعث لها ما بين قرن وآخر من يجدد لها دينها . وهو ما أثبتته التاريخ المفروء ، كما أثبتته الواقع المستقرأ .

* * *

• بين الأمس والاليوم :

ومن قارن بين حال الأمة منذ قرن مضى ، وحالها اليوم ، بل من استقرأ حالها منذ خمسين سنة ، أو ثلاثين سنة ، وتأمل حالها فى هذين العقددين من الزمان ، سيعجد أن أوضاعها تغيرت - إلى حد كبير - إلى ما هو أحسن وأمثال . وهذا أمر يلاحظه ويشهد به كل مراقب يقظ للأحداث ، فى كل جانب من جوانب الحياة ، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات ، الفكرية والأخلاقية والسلوكية .

وأكتفى هنا بشهادة رجل غربى مثقف ، اهتدى إلى الإسلام عن بصيرة ، وأمن به عن بينة ، وهو الدكتور : مراد هوفمان ، صاحب كتاب (الإسلام كبديل) ، وإنما آثرت شهادته ، لأنه رجل واسع

المعرفة ، يعرف الألمانية - لغته الأصلية - والإنجليزية والفرنسية ، وعمل سفيراً للبلاده - ألمانيا - في الجزائر والمغرب ، ويتميز بنظره (الواقعية) ، وزعنه (النقدية) ، حتى قال عن واقعيته : إنها الواقعية القاسية . وقال عن نقهه : اضطررت لأن أكون ناقداً شديداً لكل من الغرب والعالم الإسلامي .

يقول هوفمان في كتابه (الإسلام عام ٢٠٠٠) وفي فصله الثاني تحت عنوان (قليل من التفاؤل) :

١ - قد يكون من المفيد أن نفحص العالم كما هو الآن ، فماذا نرى إذا فرّكنا أعيننا قليلاً ؟ هل يتقدم الإسلام حقيقة ؟ أم أنه - إذا تركنا المظاهر - ينحدر ؟ أو أن المسلمين يتربدون على حواف التاريخ ، فريسة سهلة للاستعمار المادى والعقلى ، كما هو حالهم لعدة قرون ؟

دعونا هذه المرة نسمع من المتفائل أولاً :

٢ - يجب على المرء أن يعرف كيف كانت الحال بمكة والمدينة في القرن السابق ، ليتعرف على التقدم الحادث . لدينا أوصاف يعتمد عليها من الحجاج الغربيين أمثال : المسلم السويسرى بروكارت الذى عاش فى مكة والمدينة ستة أشهر فى ١٨١٤ / ١٨١٥^(١) ، وقد أيد

(١) جوهان لودفيج بروكارت « مكة والمدينة » برلين ١٩٩٤ .

رواية بروكارت كل من المسلم البريطاني سير ريتشارد بيرتون الذى زار مكة والمدينة فى ١٨٥٣^(١) ، والألمانى غير المسلم هيرش فون مالتزان الذى عاش فى مكة فى ١٨٦٠^(٢) .

اتفق المؤلفون الثلاثة على تدهور حالة الأماكن المقدسة ..
القذارة ، انعدام الأمان ، انتشار الخرافات .. وصدق أو لا تصدق .. شرب الخمر والدعارة حول الحرم .. بل وحتى داخله أحياناً !
لم تقم الصلاة بانتظام ، حتى بين الحجاج ، الذى هبط عددهم إلى ٧٠٠٠٠ عام ١٨١٤ (حسب تقدير بروكارت) ثم إلى ٣٠٠٠٠ عام ١٨٦٠ (حسب تقدير مالتزان) .

وفي الحقيقة ، بعد غزو نابليون لمصر ، وبعد الانهيار والتمزق المتاللى للإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، تنبأ الكثير من السياسيين والمستشرقين باختفاء الإسلام تماماً ، وفي غضون حياتهم ! فدرسوا الإسلام كحضارة على وشك الاندثار ، عليهم أن يسجلوها لأجيال المستقبل . وبهذه الروح ، استطاع المستعمرون الفرنسيون تقدير عبد القادر^(٣) ، البطل

(١) ريتشارد بيرتون « حكايات شخصية حاج بالمدينة ومكة » نيويورك ١٩٦٤ .

(٢) هيرش فون مالتزان « حجى لمكة » توينجن ١٩٨٢

(٣) برونو إينه (عبد القادر) ١٩٩٤

الجزائري ، الصوفى ، رجل الدولة ، كشخصية فلكلورية غريبة ، ذات قليل من الإزعاج ، حتى الشخصيات التى تعاطفت مع الإسلام ، جوته (١٨٣٢) على سبيل المثال ، أعجبه تشدد الإسلام فى وحدانية الله ، وليس الإسلام كما يعيشه العالم الإسلامي (١) .

٣ - من يحج أو يعتمر اليوم ، يجد التقدم هائلاً عن حالة القرن الماضى ، فقد تم توسيع الحرم المكى والحرم المدنى بجمال واقتدار ليسعا ٤٨٠٠٠ ، ٦٥٠٠٠ حاج ، وما زالا صغيرين أمام الزيادة الهائلة لمن يريدون الحج ، والذين يحجون الآن طبقاً لحصص محددة لكل دولة لا تتعادها ، منعت الكحوليات ، السرقات قليلة ، النساء لا يدخلن البلاد منفردات ، والصلوة على مدار الساعة أمام أنظار العالم .

٤ - اختلف موقف المستشرقين من الإسلام ، منذ عشرينات القرن الحالى ، وكان ذلك بداية لتغييرات أخرى إيجابية ، فلم تعد دراسة الإسلام على طريقة لورنس العرب لصالح الإمبريالية البريطانية ، بل تولته نخبة من الأكادميين الأوروبيين ، منهم رينيه جينو (عبد الواحد يحيى) ، مارتن لنج ، تيتوس بروكاردت ، وليو بولد فاييس (محمد أسد) . ومن بين المستشرقين الذين لم

(١) أحمد ثون دنفر (الإسلام وجوته) ميونيخ ١٩٩٤ ، الطبعة الثالثة .

يعلنوا إسلامهم ، هناك چاك بيرك ، لويس مانيون ، ودنيس ماسون ، آناماريأشمل ، الذين بدوا على وشك الشهادة .

وكثير من زملائهم المستشرقين ، تخلوا في دراستهم الإسلام بروح التعاطف والاعتقاد بدلاً من الاشتياز والضيق ..

وفي نفس الوقت ، منذ الثلاثينات ، وضعت حركات إحياء الإسلام - من القاعدة - في معظم البلاد الإسلامية ، الإسلام في الأجندة السياسية للبلد ، ونموذج لذلك حركة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا^(١) في مصر ، ودعاتها من أمثال سيد قطب (١٩٦٦) ، ومحمد الغزالى (١٩٩٦) كذلك أبو الأعلى المودودى (١٩٧٩).

لم يجئ الإحياء من القاعدة فقط ، فالحركة الوهابية والحركة السنوسية ، وإلى حد ما حركة محمد عبده ، جاءت من أعلى ، وانتشرت بفضل الإمكانيات المادية ، ومن أغنى أغنياء العالم اليوم سلطان بروناي ، والملك فهد ، والأمير زايد ، مما يعطي الدعوة الإسلامية ثراءً فعالاً . فكر - على سبيل المثال - في ملايين النسخ من القرآن الكريم التي توزع مجاناً ، كذلك في مجمع فهد لطباعة وتوزيع الكتب الإسلامية في المدينة .

(١) (رسائل حسن البنا) بيركلى ، لوس أنجلوس ١٩٧٨ ، ما زالت مادة رئيسية .

والخلاصة ؛ أن ذلك التطوير ، نظر إليه كتهديد أصولي ، مما جعل الإسلام يحتل القمة في ما يشغل الإعلام العالمي في الربع الأخير من القرن الحالي .

٥ - لا يتوقع اليوم أحد أن يختفى الإسلام ، ولكن أن يتمتد ، بل وينفجر ! ويضع جزراً لات الناتو في حساباتهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً في المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب ، ولكن بين الشمال والجنوب ، فالإسلام هو العدو المتّنامي المرتقب .

يرجع بهذا الخوف المسلمين المهاجرون عند عودتهم لبلادهم ، أصبح تعداد المسلمين في كل من ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بالملايين . وتقدر الإحصاءات الغربية إجمالى عدد المسلمين في العالم بـ ٩٩٠٥٤٧ مليون - وهو رقم متحفظ - يسبّبون الخوف والهلع (١) .

نشر المساجد في العالم كله بين لوس أنجلوس ، روما ، زغرب ، حتى موسكو وبكين ، وفي قرطبة الحاضرة القديمة للخلافة الأموية في الأندلس ، أسس المسلمين الإسبان في ١٩٩٤ الجامعية الإسلامية الدولية (آفيروس) وليس بعيداً عن الجامع القديم الرائع

(١) انظر : مقالة (عدد المسلمين في العالم) د . ل / دورية ، هامبورج ، فبراير ١٩٩١ ، يقول القرضاوى : والمعروف أن المسلمين في العالم اليوم أكثر من مليار وربع . ولكن إحصاءات الغربيين أبداً تحاول التقليل من عدد المسلمين لأنسباب لا تخفي على الليب .

في قرطبة ، يرفع الآذان ثانية للصلوة ، يا لها من إثارة أن يحدث هذا بعد خمسماة سنة من طرد آخر مسلم من الأندلس !

٦ - في التوقعات المستقبلية المذهلة لمحمد أسد (١٤١٢ / ١٩٩٢) في كتابه الهائل المشهور (الإسلام في مفترق الطرق) - الذي كتبه في دلهي عام ١٩٣٤ - تكلم عن صعود الإسلام مقابل انحطاط الحضارة الغربية المادية التي تشمل الاتحاد السوفييتي ، وبنهاج مخالف لنهاج السلفيين الاعتزاري والتبشيري أمام الغرب ، بين أن الإسلام منهاج شامل كامل ناجح للحياة .

رأى أسد الحرب العالمية الثانية كصراع لا مفر منه بين القوى المادية في الحضارة الغربية .

توقع أسد أن يجلب التناحر على المادة الكوارث على المعسكرين الغربي والشرقي ، ويحيط بالحضارة الغربية المادية - المملوكة رهوا بالنفس - حتى يتطلع الغرب - مرة ثانية - إلى الحقيقة الروحية « وتصبح الدعوة الناجحة للإسلام ممكنة » والتأكيد هنا من عندي .

بدت تلك الرؤيا غير دقيقة لمدة ستين عاماً ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، بدلاً من أن ينهار الغرب ، انقسم إلى معسكرين ، ظهر أنهما يوازنان بعضهما البعض لعصور قادمة .

والاليوم ، بعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ ١٩٩٠ ، وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية في الغرب ، تمر المسيحية بتغيير

في المشروع ، وما كان يسمى (مشروع التحديد) يتسلط أمام
أعيننا .

بدأ منظرو وعلماء الغرب يشكّون إذا كانت افتراضياتهم الأساسية
صحيحة أ . هـ (١)

* * *

● استمرار حركة الإحياء والتجديد :

إن من خصائص الإسلام : أن حركة الإحياء والتجديد فيه من
الداخل مستمرة ، ولا تقطع حتى تقوم الساعة ، بوساطة (الوراث
ال حقيقيين) لعلم النبوة ، الذين يقدمونه للناس خالصاً غير مشوب ،
متكاملًا غير مجزأ ، بينما غير غامض (ينفون عنه تحريف الغالين ،
وانتهال المبطلين ، وتأويل الجاهلين) (٢) .

ولا غرو أن هيأ الله لهذا الدين ، رجالاً يجددونه ، ويوقفون
أمهاته ، ويصنعون أجيالاً على هداه ، ولم تضع جهودهم سدى ،
ولم تذهب ثمرات البعث الإسلامي ، وحركات الإحياء والتجديد ،

(١) عن كتاب (الإسلام عام ٢٠٠٠) لمراد هوفمان ترجمة عادل المعلم ،
نشر دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٥ ص ١٥ - ١٨

(٢) الحديث رواه البهقى وغيره من عدة طرق ضعيفة ، وقوه ابن القيم
في (مفتاح دار السعادة) ، وقد تكلمنا عنه في كتابنا : (كيف نتعامل مع
السنة النبوية) ص (٢٨) نشر دار الوفاء بمصر .

التي لم تكن - كما توهم بعض الناس - صيحة في واد ، أو نفخة في رماد ، بل أنشأت بفضل الله تعالى وتوفيقه ، صحوة إسلامية كبرى ، فيسائر ديار العرب والإسلام ، بل حتى خارج ديار الإسلام ، حيث الأقليات والجاليات الإسلامية في الغرب والشرق ، صحوة أيقظت العقول والقلوب ، والعزائم ، وأعادت للناس الثقة بالإسلام ، والأمل في انتصاره بعد أن ظن من ظن أن راية الإسلام قد سقطت ، وأن ظله قد تقلص ، وأن أمته أمست في مؤخرة القافلة وأن العلمانية قد تغلغلت بين أبنائه .

وزلزلت القوى المعادية للإسلام زلزالها ، فطفقت تكيد للصحوة ، تتأمر عليها ، وتهتمها بما تبراً منه ، وتدعوا إلى ضده ، مستغلة انحراف بعض فصائل الصحوة - للأسف - في الفهم أو في السلوك ، لضرب الصحوة كلها ، وقطع الطريق عليها، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (١) .

وإذا كان بعض الناس يحاول أن يهون من قوة التيار الإسلامي ، ويقلل من شأن الصحوة الإسلامية ، مهولاً من قوة التيار العلماني المعادي للإسلام ، وشريعته ومنهجه لقيادة الحياة ، فأعتقد أنهم مخطئون في تقديراتهم ، أو هم يعلمون الحقيقة ، ولكنهم يتتجاهلونها عمداً لهوى في أنفسهم .



(١) الأنفال : ٣٠

● الصحوة الإسلامية وأثارها في الحياة الإسلامية :

لا يستطيع عاقل منصف أن ينكر أثر (الصحوة الإسلامية) في حياتنا المعاصرة ، تلك الصحوة التي شرقت وغرت ، وأضاءت بنورها ديار الإسلام ، ثم ذهبت إلى حيث يوجد المسلمون خارج أوطن الإسلام ، بين الأقليات الكبيرة والصغيرة ، والجاليات المنتشرة في أنحاء العالم ، وهدى الله بها ملايين الشبان والشابات .

أيقظت هذه الصحوة العقول بالوعي ، وملأت القلوب بالإيمان والحماس ، ودفعت الإرادات إلى الالتزام والعمل ، وأثرت على النساء كما أثرت على الرجال ، وغيرت من مفاهيم الأجيال الجديدة ، فنقلتها من التفكير العلماني إلى التفكير الإسلامي ، ومن الولاء للغرب إلى الولاء لله ولرسوله ، ومن التبعية إلى التحرر ، فنشأ جيل مسلم ملتزم بالإسلام : عقيدة وشريعة ، وفكرة وسلوحاً ، ورسالة وحضارة . رجونا أن يكون (جيل النصر المشود) .

أثبتت هذه الصحوة وجودها على الصعيد الفكري بما احتوته (المكتبة الإسلامية) المعاصرة من شتى الدراسات في الجوانب الإسلامية المتعددة ، وكان الكتاب الإسلامي هو الأول في سوق التوزيع ، وسجلت مئات الأطروحات للماجستير والدكتوراة في مختلف جوانب الثقافة الإسلامية : في الاقتصاد والسياسة والقانون والتربيـة والتاريخ ، وشتى العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السلوكي ، فامتلأت المساجد بالمصلين والمصليات ، وخصوصاً من الشباب ، وازدحمت بهم كذلك مواسم الحج والعمرة ، وعادت المرأة المتبرجة إلى الحجاب طوعاً .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الاقتصادي ، فنشأت البنوك الإسلامية والمؤسسات المالية الإسلامية ، وتوسعت في أقطار كثيرة من العالم الإسلامي .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السياسي ، فأصبح هناك تيار شعبي هائل ، ينادي بالعودة إلى الإسلام ، وتطبيق شريعة الإسلام ، وقامت دولة للإسلام الشيعي في إيران ، وللإسلام السنى في السودان ، وأوشكت أن تقوم دولة في الجزائر ، لو لا أن قطعوا الطريق عليها ، وحرموها أن تقطف ثمار اختيارها .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الجهادي ، فانتصرت في أفغانستان على الاتحاد السوفياتي ^(١) ، وفي البوسنة والهرسك على الوحش الصربى ، وزلزلت الانتفاضة وأشبالها ، والمقاومة الإسلامية ورجالها ، الكيان الصهيوني : الدولة التي لا تقهرون ، والشوكه التي لا تكسر !

(١) ولكن ما يؤسف له : أن إخواننا الأفغان ، قد انتصروا على الاتحاد السوفياتي - إحدى القوتين الكبيرتين في العالم - ولكنهم لم يتتصروا على أنفسهم ! هداهم الله وأصلاح ذات بيئهم .

هذه الظواهر وغيرها حركت غرائز الشر في القوى المعادية للإسلام وأمته وصحوته ، فاجتمعت على الكيد له ، والمكر به ، والتربيص بصحوته ، وقد قال إسحاق رابين في مؤتمر الدار البيضاء : إن أعداءنا الكوئين ثلاثة : الأصولية ، والجوع ، والمخدرات ! والحقيقة أنه ذكر الجوع ، والمخدرات للتغطية وذر الرماد في العيون ، وإنما قصده الأساسي : الأصولية ، وإن شئت الترجمة الحقيقة لها فهي (الصحوة الإسلامية) !

وإذا كنا نعيش في الزمن الإسرائيلي ، زمن السامری ! وإسرائيل هي الأمر الناهي في المنطقة ، وقد عملت بمهارة على (تهويid العقل العربي) وكذلك (تهويid الإعلام العربي) فلا تعجب إذا رأيت الحرب تعلن على الصحوة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، والحركة الإسلامية ، تحت عناوين شتى ، وكل ذلك لخدمة هدف واحد ، هو :بقاء إسرائيل ، وسيادة إسرائيل ، وتوسيع إسرائيل ، وهيمنة إسرائيل ، ولكن الصحوة باقية إن شاء الله .

* * *

● التيار الإسلامي أقوى وأرجح في الميزان :

أجل إن الصهيونية - وحليفتها الصليبية - تخططان لضرب الإسلام وصحوته ، وتمدان التيارات المعادية للإسلام بكل أسباب القوة والانتشار والنفوذ .

ولكننا إذا تعمقنا في تقدير وزن القوى التي لنا والتي علينا ؟
وجدنا كفة التيار الإسلامي - بحمد الله - أرجح وأنقل في الميزان .

(أ) فنحن بالإسلام نملك رصيداً ضخماً ، لا يمكن أن تملكه دعوة أخرى وافدة من هنا وهناك ، إن وراء الإسلام (قوة الجماهير) الغفيرة المؤمنة بربها وقرآنها ومحمدتها ، المتتعلقة إلى من يقودها باسم الله ، ويوضع يدها في يد رسول الله ﷺ وعندها تبدل المال عن رضا واغبطة ، والروح عن طوعية وارتياح . إن هذه الأمة متدينة بفطرتها ، وبتاريخها ، والدين هو مفتاح شخصيتها ، وصقل مواهبها ، وصانع بطولاتها ، وسر انتصاراتها الكبرى ، وهي أسرع استجابة إليه ، والتفافاً به ، من أي دعوة دخيلة جاء بها غاصب ، محتل ، أو بذر بذورها طامع متربص .

وقد جربنا أثر ذلك في العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ (٦٠/١٩٧٣) م ، وظهر أثر (الله أكبر) في الميدان .

(ب) ونملك كذلك (قوة المنهج) الذي ندعوه إليه ، قوة مبادئ الإسلام العظيمة الخالدة ، نملك (قوة الإسلام) التي تمثل في وضوحه وشموله ، وعمقه ، واتزانه وتأثيره . الإسلام : عقيدة تخاطب العقل ، وعبادة ترتكى النفس ، وأخلاقاً تلائم الفطرة ، وأحكاماً تحقق التوازن والعدل ، تطارد المفاسد ، وتجلب المصالح ، وتعطى كل ذي حق حقه ، فلا طغيان لفرد على مجتمع ، كما هي

فلسفة الرأسمالية ، ولا مجتمع على فرد ، كما هي فلسفة الماركسية ،
بل توزان وتكامل ، بلا طغيان ، ولا إخسار في الميزان .

ومن أبرز معالم القوة في هذا الإسلام : أنه ليس من وضع
البشر ، بل هو من تنزيل رب العالمين ، وهذا العنصر الإلهي فيه
جعله يبراً من الغلو والتقصير ، ومن العجز والقصور ، الذي
يصاب به دائمًا كل منهج يضعه البشر لأنفسهم .

وهذه الميزة أيضًا تجعله أدنى إلى القبول والإذعان له من جمهرة
الناس ؛ لأنّه انقياد من الإنسان لربه ، الذي خلقه فسواء ، وأمده
بنعمته ، وغمره برحمته ، والذي يرجو مثوبته ، ويخشى عقابه ،
على عكس المبادئ الوضعية ، التي لا يطيعها الإنسان إلا خوفاً
أو طمعاً ، والتي يحاول أن يتهرب من سلطانها ما استطاع .

ومن أسباب قوة الإسلام : أنه منهج نابع من أعماق الأمة ،
وليس دخيلاً ولا طارئاً عليها ، بحيث تحتاج إلى ضغط مادي ،
أو معنوي حتى تسيقه وترضى بتجربة كأسه .

(ج) إن هذه القوة المذكورة في منهج الإسلام ، لا يعادلها
إلا القوى المكونة في حنايا أمة الإسلام .

تلك القوى التي انفجرت يوماً وال المسلمين في ضعف وتفرق
وخذلان ، فحطمت الصليبيين في (حطين) ، وهزمت التتار

فى (عين جالوت) ، وأسرت لويس التاسع فى (دار ابن لقمان)
بالمقصورة ..

* * *

● القوى التى تملکها الأمة :

إن القوى التى تملکها أمتنا الإسلامية ليست بالهينة ولا اليسيرة ،
إذا أحسنت توظيفها والاستفادة منها ، فهى فى الحق قوى كبيرة
وهائلة .

١ - القوة البشرية :

أولى هذه القوى : القوة البشرية العددية ، فأممتنا تملك اليوم من
البشر ما يزيد على المليار والربع من المسلمين المؤمنين بعقيدة التوحيد ،
متتشرين فى قارات العالم الست .

صحيح أن العبرة بالكيف لا بالكم ، ولكن الكم له أهمية أيضاً ،
وسنرى فى تقارير الغربين كيف يخافون من تزايد أعداد المسلمين ،
فى حين يعانون هم منذ مدة من تناقص النسل عندهم بصورة
أصبحت تفزعهم .

إن الكثرة فى حد ذاتها نعمة ، وهى شرط لا بد منه لأى تفوق
اقتصادى أو حضارى ، ولهذا تسعى الأمم إلى تعويض هذا بالتكلل
فيما بينها رغم اختلافها فى العروق واللغات والأديان ، والتاريخ .

ومن هنا ذكر القرآن في معرض الامتنان والإنعم قوله تعالى :
﴿ وَادْكُرُوا إِذْ كُتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَ كُمْ ﴾ (١) .

والشاعر العربي يقول : وإنما العزة للكثير !

والشاعر الآخر يقول في مقام الفخر بكثرة قومه :
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر غلاؤه سفيتا !

٢ - القوة المادية والاقتصادية :

وثانية هذه القوى : القوة المادية والاقتصادية ، فأمتنا تملك من المعادن والثروات المذخورة في باطن الأرض ، والثروات المنشورة على ظاهرها ، والثروات المائية والبحرية ، ما لا تملكه أمة أخرى .

عندنا الأراضي الخصبة من السهول والوديان ، وعندنا الهضاب والجبال ، وعندنا البحار والبحيرات ، والأنهار العظام ، وعندنا العيون والآبار ، وعندنا مخزون المياه الجوفية ، وعندنا المعادن المهمة التي يحتاج إليها العالم ، ويكتفى أن لدينا معظم مخزون العالم من النفط .

وموقعنا الجغرافي كذلك له قيمة كبيرة : استراتيجية وحضارية ، فهو ملتقى القارات ومنبع الحضارات ، ومهبط الرسالات السماوية الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام .

. ٨٦ (١) الأعراف :

٣ - القوة الروحية :

وثلاثة هذه القوى التي تملّكها أمتنا : القوة الروحية ، قوة الرسالة التي تؤمن بها ، وتدعو إليها ، وتحيا لها وتموت عليها : رسالة الإسلام العامة الخالدة ، التي ختم الله بها النبوات والرسالات .

فهي الرسالة التي تميّزت بالربانية ، فمصدرها الله ، وغايتها إلى الله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

نحن المسلمين وحدنا الذي نملك الوثيقة الإلهية الوحيدة التي تتضمّن كلمات الله الأخيرة للبشرية ، سالمة من كل تحريف وتبديل : القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وتميّزت هذه الرسالة كذلك بالنظرية الشمولية : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) .

وتميّزت بنزعتها الأخلاقية ، حتى قال نبيها : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٣) .

(٢) النحل : ٩٠

(١) الأنعام : ١٦٢

(٣) رواه عن أبي هريرة : البخاري في الأدب المفرد بلفظ : (صالح الأخلاق) رقم ٢٧٤ ، أحمد : ٣٨١/٢ ، الحاكم : ٦١٣/٢ ، وصححه ووافقه الذهبي ، وذكره الألباني في الصحيحه برقم ٤٥ .

وَتَمَيَّزَتْ بِنَرْعَتْهَا الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْعَالَمِيَّةُ : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » (١) .

وَتَمَيَّزَتْ بِنَرْعَتْهَا الْوَاقِعِيَّةُ ، فَشَرَعَتْ لِلضَّرُورَاتِ أَحْكَامَهَا ، وَقَدَرَتْ لِلْإِنْسَانِ أَعْذَارَهُ ، وَشَرَعَتْ الرَّحْصَ وَالتَّخْفِيفَاتِ .

وَتَمَيَّزَتْ بِخَصِّيَّصَتِهَا الْوَسْطَيَّةُ : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » (٢) ، فَهُنَّ تَوازِنَ بَيْنَ الْمَادَّةِ وَالْرُّوحِ ، بَيْنَ الْعُقْلِ وَالْقَلْبِ ، بَيْنَ الدِّينِ وَالآخِرَةِ ، بَيْنَ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ ، بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْمَجَمُوعِ ، بَلَا طَغْيَانٍ وَلَا إِنْسَارٍ .

وَالْعَالَمُ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، لِتُنْقِدَهُ مِنَ الْمَادِيَّةِ الْمَسْرُوفَةِ ، وَمِنَ النَّفْعِيَّةِ الْمَجْحُوفَةِ ، وَمِنَ الإِبَاحِيَّةِ الْقَاتِلَةِ ، وَمِنْ عَصْرِ الْخُوفِ وَالْقُلُقِ وَالْأَكْتَابِ وَالْيَائِسِ إِلَى عَصْرِ الْأَمْنِ وَالسَّكِينَةِ وَالْبَهْجَةِ وَالْأَمْلِ .

* * *

• تحذيرات الأجانب من القوة المذخورة في الإسلام وأمته :

إننا نحن المسلمين قد نجهل القوى المذخورة لدينا ، ولكن الأجانب الدارسين لطبيعة أمتنا ، ومذخور الطاقات في شعوبنا ،

(١) الأنبياء : ١٠٧ (٢) البقرة : ١٤٣

هم الذين يدركون حقيقة ما نملك من قوة ذاتية ، يحسبون لها ألف حساب ، بل يساورهم وهم مفزع من خشية انطلاقها يوماً من الأيام ، يقول البروفسور « جب » في كتابه : (وجهة الإسلام) : (إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة ، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبيّن المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة في أمرها ، إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة ، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد) .

وكتب الرحالة الألماني (بول أشميد) كتاباً خاصاً بهذا الموضوع سماه : (الإسلام قوة الغد) ظهر سنة ١٩٣٦ م وما قال فيه : إن مقومات القوى في الشرق الإسلامي ، تتحصّر في عوامل ثلاثة :

١ - في قوة الإسلام (كدين) وفي الاعتقاد به ، وفي مثله ، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة .

٢ - وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي الذي يمتد من المحيط الأطلسي ، على حدود مراكش غرباً إلى المحيط الهادئ ، على حدود أندونيسيا شرقاً ، وتمثل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتي ، لا يدع المسلمين في حاجة مطلقاً إلى أوروبا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا .

٣ - وأخيراً أشار إلى العامل الثالث وهو : خصوبة النسل

البشرى لدى المسلمين ، مما جعل قوتهم العددية قوة متزايدة^(١) .

ثم قال : (فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث ؛ فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة ، وتوحيد الله ، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم ؛ كان الخطر الإسلامي خطراً منذراً بفناء أوروبا وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله) .

ويقترح (بول أشميد) هذا - بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية ، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية ، كما تبلورت في تاريخ المسلمين ، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم - أن يتضامن الغرب المسيحي شعوبياً وحكومات ، ويعيدوا الحرب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر ، ولكن في أسلوب نافذ حاسم^(٢) .

وقال (روبرت بين) في مقدمة كتابه الذي سماه : (السيف المقدس) : (علينا أن ندرس العرب ونسير أفكارهم ؛ لأنهم حكموا العالم سابقاً ، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى ، والشعلة التي أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة ، وهناك ما يدعوه إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ ، ولهذا كتبت هذا الكتاب لكي يقف

(١) ليسع ذلك دعاء تحديد النسل بإطلاق في العالم الإسلامي !

(٢) ترجمة الدكتور محمد البهى في إحدى محاضراته .

القراء على أصل العرب ، وسميته باسم السيف ذى النصلين الذى ناله محمد فى وقعة بدر تذكاراً لانتصاره ؛ لأن السيف أصبح رمزاً لطابه الإمبريالية)^(١) .

وبغض النظر عما فى هذا الكلام من تحامل ، وما يغلى به من حقد ، فهو يبين لنا مبلغ قوى المسلمين فى نظر الأجانب عنهم ، وهم اليوم يسمعون الإسلام (الخطر الأخضر) بعد أن زال (الخطر الأحمر) بانهيار الاتحاد السوفيتى ، وبعد أن تقاربوا مع (الخطر الأصفر) المتمثل فى الصين ، والإسلام ليس خطراً إلا على الإلحاد والفساد والإنحلال والاستعباد .

واسمح لي أن أسوق لك مثلاً معاصرًا على القوة الذاتية فى هذا الإسلام ، ذلك المثل هو (تركيا) . تركيا التى أرادأتاتورك وحزبه أن يعروها من لباس الإسلام وأخلاقه وتقاليده وأحكامه ولغته وكل ما يمت بصلة إليه ، حتى ألغى غطاء الرأس ، وحتى الكتابة بالحرف العربى ! فقد جعل غطاء الرأس إجبارياً هو القبعة ، وجعل حروف الكتابة هى اللاتينية ، منع الكلام بالعربية ولو فى الأذان ! وأباح للمسلمة أن تتزوج اليهودى أو النصرانى ، وسوى بين الذكر والأنثى

(١) ص ١٧ من الكتاب بالإنجليزية ، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير الدكتور إسحاق موسى الحسينى عن هذا الكتاب ، قدمه إلى الإداره العامة للثقافة بالأزهر فى أواخر الخمسينيات .

في الميراث ، وجعل القوانين كلها غربية لحمًا ودمًا وعظامًا ، حتى القوانين التي تسمى (الأحوال الشخصية) وطوردت الثقافة الإسلامية والعربية ، وحرب أهلها بل قوتلوا وقتلوا ، وظن الناس أن شمس الإسلام قد غربت عن تركيا إلى الأبد ، وإن ظل الإسلام قد تقلص عنهم إلى غير رجعة ، ومرت على ذلك عشرات من السنين جاءت راكدة ، كفيلة بأن تميت الإسلام في الصدور ، وأن تدب معها عقارب اليأس إلى القلوب .

ولكن الإسلام الكامن في صدور الشعب التركي لم يميت . يمكن أن تقول أنه ركد أو نام ، حتى واتته الفرصة فظهر قوة مؤثرة . ولم تنزل نقرًا ونسمع عن امتداد قوة الدين هناك ، وانكماش الإلحاد والإباحية ، وخفض صوتها يومًا بعد آخر ، رغم ما لديهما من إمكانات مادية وأدبية ، وما يلقى دعاتها من مساعدات داخلية وخارجية . وظهرت المدارس القرآنية بالآلاف ، وعادت المساجد تبني ، والكتب الإسلامية تنشر ، والتوجهات الإسلامية تظهر وتؤثر في الحياة .

ولقد أدت انتفاضة الدين في تركيا أخيراً إلى حصول (حزب الرفاه) الإسلامي على الأغلبية النسبية في البرلمان التركي ، رغم العقبات التي توضع في طريقه .

إن آية الآيات في هذا الدين وأثره في أمته ، ما ذكرناه من قبل : أنه أشد ما يكون قوة وأعظم ما يكون رسوخاً وشموخاً ، حين تنزل

بساحتها الأزمات ، وتحدق به الأخطار ، ويشتد على أهله الكرب ،
وتضيق بهم المسالك ، ويقل المساعد والتصرير :

حيثند ، يحقق هذا الإسلام معجزته ، فتبنيت الحياة في الجثمان
الهامد ، ويتدفق دم القوة في عروق الأمة ، وينطلق جنود الحق
انطلاقه المارد من القمقم ، فإذا النائم يصحو ، والجبان يتشجع ،
والضعف يقوى ، والشارد يعود ، والشتيت يتجمع ، وإذا هذه
القطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك ، تكون سيلًا عارماً لا
يقف دونه حاجز ولا سد من السدود (١) .

* * *

● محن الدعاة :

أما اعتراض البعض بالمحن الشداد التي تصب على رؤوس الدعاة
إلى الإسلام ، والضربات القاسية التي تنهال عليهم من هنا وهناك ،
فمن ذا الذي يأمل أن تقوم لهؤلاء المضطهدین المشردين المعدبين
قائمة ؟ أو يرتفع لهم علم ؟ ، أو يتتصر في الناس نظام يدعون
إليه ، ورسالة يؤمنون بها ، وهم في كل يوم بين المطرقة والسنдан ؟
فنقول لهؤلاء المعترضين أو المتوجسين :

إن هذه المحن التي تذكرونها ليست علامة ضعف أو موت لدعاة
الإسلام ، بل هي دليل حياة وحركة وقوة ، فإن الميت الهامد لا
يُضرب ، ولا يؤذى ، إنما يضرب و يؤذى الحى المتحرك المقاوم .

(١) انظر كتابنا (من أجل صحوة راشدة) ص ١٠٤ ، ١٠٧ .

إن الدعوة التي لا يضطهد أصحابها ، ولا يؤذى دعاتها : دعوة تافهة أو ميّة ، أو دعاتها - على الأقل - تافهون ميتون .
ثم إن هذه المحن والاضطهادات برهان على حيوية المبدأ نفسه ، مبدأ الإسلام ، فهو يقدم كل حين شهداء في معاركه ، يررون شجرته بدمائهم ، ويبنون صرح مجده بأشلائهم .

وهذه المحن أبلغ معلم ، وأعظم مرب ، لأصحاب الدعوات ، باعتبارهم أفراداً ، تصفو أنفسهم بالشدة ، وتنمحص قلوبهم بالمحنة ، وقد جاء في الحديث .

« مثل المؤمن حين يصيبه الوعك أو الحمى ، كمثل الحديدة تدخل النار ، فيذهب خبثها ، ويبقى طيبها » (١) .

وحسينا قول الله تعالى : « وَلَا تَهْتُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسِكُمْ قَرَحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرَحٌ مُّثُلُهُ ، وَتَلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَيُمَحَّصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » (٢) .

* * *

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار ، من حديث عبد الحميد بن عبد الرحمن بن أزهر ، عن أبيه : ٣٦٢ / ١ (٧٥٦) ، وقال الهيثمي في المجمع : (٣٠٢ / ٢) : رواه البزار والطبراني في الكبير وفيه من لا يعرف . ورواه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقة الذهبي : ٣٤٨ ، ٧٣ / ١ ، وهو صحح بما له من شواهد الآلباني ، وأثبت أن إسناد الحديث حسن ، وهو صحيح بما له من شواهد معروفة ، الصحيح : ٤ / ٢٩١ ، ١٧١٤ (١٧١٤) .

(٢) آل عمران : ١٣٩ - ١٤١

مبشرات من السنن الإلهية

وهناك مبشرات أخرى مستمدة من سنن الله في الخلق وفي الاجتماع الإنساني ، وهي سنن وقوانين ثابتة تجري على الآخرين ، كما جرت على الأولين ، وتجري على المسلمين كما تجري على المشركين ، لا تختلف ولا تتبدل ، كما قال سبحانه : « فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَبَدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَحْوِيلًا » (١) .
فإذا نظرنا إلى هذه السنن الإلهية وجدنا مجموعة منها في صفتنا نحن المسلمين ، ودعاة الإسلام ، من ذلك :

* * *

● سُنَّة التداول :

من هذه السنن : سنة [التداول] أو [المداولة] للأيام بين الأمم والأقوام ، وهي السنة التي قررتها الآية الكريمة من سورة آل عمران ، وقد نزلت بعد غزوة أحد التي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم ، قال عزَّ وجلَّ : « إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » (٢) .
ولهذا قيل : الدهر يومان ، يوم لك ، ويوم عليك ، وقيل : دوام الحال من المحال .

(١) فاطر : ٤٣ (٢) آل عمران : ١٤٠

فالأحوال تتبدل ، والدنيا تحول ، والعالم يتغير . وكم من غنى افتقر ، ومن فقير أغنى ، وكم من عزيز ذل ، وذليل عز ، وكم من موسر أعسر ، ومن معسر أيسر ، وقد قال تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١) .
وقال تعالى : ﴿سَيَّجِعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٢) .

ومن نظر في أحوال الأمم عبر التاريخ يجد شعلة الحضارة تنتقل من أمة إلى أمة ، ومن يد إلى أخرى .

ومن حسن حظنا أن [سنة التداول] أو [قانون المداولة بين الناس] يعمل معنا لا ضدنا ، وكما قال الإمام حسن البنا : إن الدور لنا لا علينا !

فقد كانت قيادة العالم قديماً في يد الشرق ، على أيدي الحضارات الفرعونية والآشورية والبابلية والكلدانية والفينيقية ، والفارسية والهندية والصينية . ثم انتقلت إلى الغرب ، على يد الحضارة اليونانية ذات الفلسفة الشهيرة ، والرومانية ذات التشريع المعروف ، ثم انتقلت هذه القيادة مرة أخرى إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإسلامية ، وهي حضارة متميزة جمعت بين العلم والإيمان ، بين الرقي المادي والسمو الروحي ، ثم غفا الشرق وغفل عن رسالته .

(١) الانشراح : ٦ ، ٥ ، ٧ (٢) الطلاق :

فأخذ الغرب الزمام ، وكانت له القيادة مرة أخرى ، ولكنه لم يرع أمانة هذه القيادة ، بل أفلس في ميدان الروح والأخلاق ، وفرط في العدل ، وأعلى القوة على الحق والمصالح على القيم ، والمادة على الروح ، والحمداد على الإنسان ، وكالبمكياليين في التعامل مع القضايا البشرية ، فكان من سنة الله أن تنتقل الشعلة إلى غيره . والافتراض حسب استقراء التاريخ : أن تعود إلى الشرق مرة أخرى الشرق الذي يملك رسالة غير رسالة الغرب ، وهو الشرق الإسلامي ، فعليه أن يتهيأ لذلك ، ويعده له العدة ، كما قال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾^(١) ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴾^(٢) . وليس بعجب أن تنتقل عجلة القيادة العالمية من الغرب إلى الشرق ، والغرب الآن هو المتفوق والمقدر ، والشرق هو المتخلف والعاجز !

فالواقع أن المادية في الغرب قد تغلغلت في الفكر والسلوك والحياة ، وأن التحلل والفساد الأخلاقي قد وصل إلى النخاع ، وأن الحضارة لا يمكن - وفق سنن الله - أن تستمر بلا أخلاق ، والأخلاق لا يمكن أن تنمو وتوثر إلا في ظلال الإيمان^(٣) .

(١) الأعراف : ١٢٩

(٢) الأنبياء : ١٠٥

(٣) انظر : فصل آفات الحضارة المعاصرة ، وفصل : عقلاه الغرب يدقون أحجار الإنذار في كتابنا (الإسلام حضارة الغد) ص ٢٧ - ١١٦ - نشر مكتبة وهبة .

ولقد رأينا ورأى العالم كله ، كيف انهارت القوة العالمية الثانية - وهي الاتحاد السوفييتي - فجأة ، وبلا مقدمات تذكر ، برغم ما يملك من ترسانة نووية ضخمة ، وأسلحة استراتيجية جبارة ، وقوة عسكرية واقتصادية هائلة ، وما ذلك إلا لأن الخراب كان في الباطن لا في الظاهر ، وفي المعنيات قبل الماديات .

والغرب المنفرد الآن بالقوة وبالتأثير في الساحة العالمية ليس أحسن حالاً من نظيره السوفييتي .

* *

● سنة التغيير :

ومن السنن الإلهية التي نجدها في صفات المسلمين ، ونعدها من المبشرات : [سنة التغيير] التي قررها القرآن الكريم في أكثر من آية . فالذين يتغيرون من الخير إلى الشر ، ومن الاستقامة إلى الانحراف ، من الصلاح إلى الفساد ، ومن البصيرة إلى العمى ، يغير الله ما بهم من حال النعمة إلى النكمة ، ومن القوة إلى الضعف ، ومن العزة إلى الذلة ، ومن الرخاء إلى الشدة ، وهذا ما ذكره القرآن في سورة الأنفال بعد أن ذكر مصير آل فرعون والذين من قبلهم ، الذين كفروا بآيات الله فأخذتهم الله بذنبهم .

وقال عز من قائل : « **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا نَعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ** * كَدَأْبٍ

آل فَرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فَرْعَوْنَ ، وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١﴾ .

وهذه السنة إذا طبقت على أهل الحضارة الغربية الذين مكن الله لهم الأرض ، وسخر لهم قواها ، وآتاهم من كل الشهوات ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ووسع عليهم الأرزاق فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكنهم - كما ذكرنا في [سنة التداول] خانواأمانة القيادة والمسؤولية ، وطغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وبعبارة وجيزة : أنهم غيروا ما بأنفسهم إلى الشر والفساد ، فهم أهل لأن يعمل الله فيهم سنته فيغير ما بهم . ويسحب القيادة منهم ، وينقلها إلى غيرهم .

وتتم هذه السنة : أن الذين تتغير أنفسهم ، أو يتغير ما بأنفسهم من الشر إلى الخير ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الانحراف إلى الاستقامة ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الكسل إلى العمل ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، فهم أهل أن يغير الله حالهم أو يغير ما بهم من الضعف إلى القوة ، ومن الذلة إلى العزة ، ومن الهزيمة إلى النصر ، ومن الخوف إلى الأمان ، ومن الاستضعف إلى التمكين .

(١) الأنفال : ٥٣ ، ٥٤

وهذا ما تشير إليه الآية الأخرى في سورة الرعد ، وهي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١)

وهذه السنة تمنحنا - نحن المسلمين - الأمل في التغيير وتحسين الأحوال ، فقد رأينا الكثير من المسلمين في عصر الصحوة الإسلامية ، يتغيرون تغييراً جذرياً من الإعراض عن الإسلام إلى الإقبال عليه ، من الجهل بأحكامه ، إلى الحرص على التقى فيه ، من التسيب والشروع عن تعاليمه إلى الالتزام بها ، من انشغال الفرد بخاصة نفسه وعدم اهتمام بأمر أمه إلى حمل هموم الأمة ، والمشاركة في قضياتها بإخلاص وإيجابية ، من الجري وراء اللذات واتباع الشهوات إلى إحياء الدعوة وتبني الجهاد للدفاع عن الدين وحرماته ، من التكشف والتعرى عند النساء إلى الالتزام بالحجاب ، من البعد عن المساجد إلى عمارتها بالصلوات والدروس .

وكل هذه الأعمال والآثار تشعرنا أن الأمة قد تغيرت إلى حد كبير ، ومقتضى عدل الله تعالى وسته لا يتخلى عنها ، وأن يكافئها على هذا التغيير النفسي والسلوكي العميق بأن يغير ما بها ، ويتحولها إلى حال أفضل .

* * *

(١) الرعد : ١١

وقفات لا بد منها

أخى القارئ الكريم ؛ أحسب أن شعاع الأمل الذى يضئ جوانحى قد وصل إلى قلبك ، وأن غيوم اليأس والإحباط التى خيمت على أفئدة الكثيرين قد تتشعّت أو أوشكت ، وأن الشعور بأن نصر الله قريب قد ساد وهىمن ، رغم المؤشرات التى تعقد ، والمؤامرات التى تدبى ، والحملات التى تشن على الإسلام ، باسم التطرف حيناً ، والإرهاب حيناً ، والأصولية أحياناً !

أجل ، إنى - برغم الضغوط الهائلة التى تتعرض لها الصحوة الإسلامية ، والضربات الوحشية التى توجه للحركة الإسلامية ، والمحايد الخفية التى تبيت للأمة الإسلامية ، وغفلة القائمين على أمر الأمة ، بل مساعدتهم لأعدائها على شعوبهم - برغم هذا كله أنا متسائل بمستقبل الأمة والصحوة والدعوة .

ولطالما أعلنت فى أكثر من مناسبة فى محاضراتى ودروسي : أنه إذا كان القرن التاسع عشر قرن الرأسمالية ، والقرن العشرون قرن الشيوعية ، فإن القرن الحادى والعشرين هو قرن الإسلام .

ويمكن أن نقول : إذا كان القرن التاسع عشر قرن المسيحية ، والقرن العشرون هو قرن اليهودية ، وقيام دولة إسرائيل ، وانتصارها

على بضع وعشرين دولة عربية ، وبضع وأربعين دولة إسلامية ، فإن القرن الحادى والعشرين هو قرن الإسلام !

أعني إذا نظرنا إلى الإسلام ديناً بين الدينين الشهيرين : اليهودية والمسيحية ، أو إذا نظرنا إليه باعتباره نظاماً بين النظمتين العالمتين : الرأسمالية والشيوعية - فإن الإسلام يتميز بأنه نسيج وحده ، ويحمل عناصر الخلود فى طبيعته ، والإحياء لأمته ، والانتشار لدعوته ، مع مسيس حاجة العالم إليه ، بوصفه رسالة التوازن الوحيدة ، التى يفتقر إليها الإنسان .

وأحمد الله أن الذى قلته منذ زمن وجدت اليوم من يشاركتنى فيه : أن القرن القادم هو قرن الإسلام بإذن الله .

قال ذلك الدكتور (مراد هوفمان) فى كتابه (الإسلام عام ٢٠٠٠) الذى أكد أن الفرصة متاحة أمام الإسلام ليصبح ديانة العالم الأولى في القرن ٢١ .

وقاله (جيم ميران) عضو لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكى ، الذى دعا الأمريكيين إلى وجوب التعرف على الإسلام دين السلام والسامحة ، الدين الذى يبحث على الكد والاجتهد ، ويحب النظام والالتزام ، ويفيض بالحب واللطف ، وهو يعتبر الرسول محمدأً أعظم إنسان عرفه التاريخ ، ويجب التعرف على جوانب عظمته التى كان يتمتع بها ، وكذلك عدد كبير من أصحابه ،

وكل شعوب العالم يجب أن تعرف على التعاليم التي جاء بها محمد ، ولكن للأسف لم يحدث ذلك لسبعين :

الأول : هو اتخاذ غير المسلمين موقفاً من هذه التعاليم ، منطلقه التعصب والتحيز والجهل .

والثاني : هو عدم سعي المسلمين حيثاً لإطلاع غيرهم على عظمة دينهم .

وانتهى في حديثه الطويل مع مدير تحرير مجلة (المجتمع) الكويتية إلى قوله : أنا أعتقد أن القرن القادم هو قرن الإسلام ، وقرن الثقافة الإسلامية ، وستكون هذه فرصة لإحلال مزيد من السلام والرفاهية في كل بقاع العالم أهـ^(١) .

* * *

● تنبيه على أمرتين :

أريد أن أنه في هذه الوقفات على أمرتين مهمتين :

الأول : أن كل الدعاة والمصلحين المجددين كانوا من ذوى القلوب الآملة في الله ، الواثقة بالنصر ، الراجحة للغد ، المرتقة لظهور الفجر .

(١) انظر : حوار أحمد منصور مع جيم ميران في مجلة (المجتمع) العدد ١١٩٠ ، الصادر في ٥/٣/١٩٩٦ م .

ولا يصلح داعية يغمره اليأس من نجاح دعوته ، وانتصار رسالته ،
بل الداعية الحق هو الذى يهزم الأمل فيه اليأس ، ويغلب الرجاء فيه
عوامل الخوف والقلق ، ويطمئن إلى أنه مع الله ، فالله تعالى معه :
 ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَغْرِبًا * وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ،
وَمَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بِالْغَيْرِ أَمْرٍ ، قَدْ جَعَلَ
اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (١)

* *

• حسن البناء والأمل :

وقد كان إمامنا الشهيد حسن البناء من أقوى الناس أملًا في النصر، ورجاء في المستقبل ، رغم ما يعلمه ويحسه من ألغام العقبات التي توضع في طريقه ، بين ذلك في محاضراته ودروسه ، وسجله في رسائله الشهيرة ، وكتبه في مقالاته ، وخصوصاً في جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية . الذي كان يكتب فيها (حديث الجمعة) الأسبوعي ، ولا سيما في سنة ١٩٤٨ م والمحنة تطل برأسها ، وفيها (الطهارة المهرة) طبعتها المسمومة .

أذكر من هذه المقالات : مقالاً بعنوان (ولو) يبشر فيه أن النصر قريب ، ولو اشتدت الغمة ، وأن الفجر قادم وإن طالت الظلمة ،

(١) الطلاق : ٢ ، ٣

ومقالاً بعنوان (أربعة أدلة) استدل فيه بالنصوص والتاريخ والحساب على أن النصر آتٍ لا ريب فيه .

وفي رسائله أكد هذا المعنى تأكيداً بلغاً ، بأسلوبه (السهل الممتنع) كما في رسالة (دعوتنا في طور جديد) التي ركز فيها على (يقظة الروح) التي يريد بها حياة القلوب ، وصحوة الوجدان والمشاعر ، وطموح الأنفس وتوثيقها لتحقيق الأهداف السامية والمثل العليا ، وهو ما فعله النبي ﷺ بنفوس أصحابه ، حيث غرس فيها هذه المشاعر الثلاثة : الإيمان والعزة والأمل ، الإيمان بعظمته الرسالة ، والاعتزاز باعتناقها ، والأمل في تأييد الله إياها .

وفي رسالة (إلى أي شيء ندعو الناس) يقول البنا رحمه الله تحت عنوان (طريق طويلة) :

« أرجو أن تكون هذه الكلمات المتتالية في بيان دعوة الإخوان المسلمين قد كشفت للقراء الكرام عن غايتهم ، وأبانت لهم ولو إلى حد ما عن مناهجهم في السير إلى هذه الغاية ، وقد تحدثت من قبل إلى كثير من إخواننا الغيورين على الإسلام ومجدده حديثاً طويلاً هو أشبه بهذه الكلمات التي رأها القراء تحت عنوان : (إلى أي شيء ندعو الناس) .

ولقد أصغى إلىَّ من حدثهم إصغاء مشكوراً ، وكنا نتفهم القول تبعاً أولاً فأولاً ، حتى خرجنا من المحادثة مقتنعين تماماً بشرف

الغاية ونجاح الوسيلة . وكم كانت دهشتي عظيمة حين رأيت منهم شبه إجماع على أن هذه السبيل مع التسليم بنجاحها طويلة ، وأن التيارات الجارفة الهدامة في البلد قوية ، مما يجعل اليأس يدب إلى القلوب الذي وجده أولئك المتحدثون من قبل ، وحتى لا يجد القراء الكرام في أنفسهم هذا الشعور الذي وجده أولئك المتحدثون من قبل ، أحببت أن تكون هذه الكلمة مفعمة بالأمل ، ، فياضة باليقين في النجاح إن شاء الله ، والله الأمر من قبل ومن بعد ؛ وسأحصر الموضوع في نظرتين إيجابيتين :

* *

● نظرة فلسفية اجتماعية :

يقول علماء الاجتماع إن حقائق اليوم هي أحلام الأمس ، وأحلام اليوم حقائق الغد . وتلك نظرة يؤيدتها الواقع ويعززها الدليل والبرهان ، بل هي محور تقدم الإنسانية ودرجتها في مدارج الكمال ، فمن ذا الذي كان يصدق أن يصل العلماء إلى ما وصلوا إليه من المكتشفات والمخترعات قبل حدوثها ببعض سنين ، بل إن أساطير العلم أنفسهم أنكروها لأول عهدهم بها ، حتى أثبتتها الواقع وأيدتها البرهان ، والمثل على ذلك كثيرة ، وهي من البداهة بحيث يكفينا ذلك عن الإطالة بذكرها .

* *

● نظرية تاريخية :

إن نهضات الأمم جميعها إنما بدأت على حال من الضعف يخيّل للناظر إليها أن وصولها إلى ما تبتغى ضرب من الحال . ومع هذا الخيال فقد حدثنا التاريخ أن الصبر والثبات والحكمة والأنفة وصلت بهذه النهضات الضعيفة النشأة ، القليلة الوسائل ، إلى ذروة ما يرجو القائمون بها من توفيق ونجاح . ومن ذا الذي كان يصدق أن الجزيرة العربية ، وهي تلك الصحراء الجافة المجدبة تنبت النور والعرفان ، وتسيطر بنفوذ أبنائها الروحى والسياسى على أعظم دول العالم ؟ ومن ذا الذي كان يصدق أن هذه الشيعة الضئيلة المسترة من بني على والعباس تستطيع أن تقلب ذلك الملك القوى الواسع الأكناف ما بين عشية وضحاها ، وهي ما كانت يوماً من الأيام إلا عرضة للقتل والتشريد والنفي والتهديد ؟ ومن ذا الذي كان يظن أن صلاح الدين الأيوبي يقف الأعوام الطوال ، فيرد ملوك أوروبا على أعقابهم مدحورين ، مع توافر عددهم وظهور جيوشهم ، حتى اجتمع عليه خمسة وعشرون ملكاً من ملوكهم الأكابر ؟

ذلك في التاريخ القديم ، وفي التاريخ الحديث أروع المثل على ذلك ، فمن كان يظن أن الملك عبد العزيز آل سعود وقد نفّيت أسرته وشرد أهله وسلب ملكه يسترد هذا الملك ببضعة وعشرين رجلاً ، ثم يكون بعد ذلك أaculaً من آمال العالم الإسلامي في إعادة مجده وإحياء وحدته ؟



● هل هناك طريق آخر؟ :

وثم نظرتان سلبيتان تحدثان التبيحة بعينها ، وتوجهان قلب الغيور إلى العمل توجيهًا قويًا صحيحًا ، أو لاهما : أن هذه الطريق مهما طالت فليس هناك غيرها في بناء النهضات بناءً صحيحًا ، وقد أثبتت التجربة صحة هذه النظرية .

الواجب أولاً :

وثانيتها : أن العامل يعمل لأداء الواجب أولاً ، ثم للأجر الأخرى ثانياً ، ثم للإفادة ثالثاً ، وهو إن عمل فقد أدى الواجب ، وفاز بثواب الله ما في ذلك من شك ، متى توفرت شروطه ؛ وبقيت الإفادة وأمرها إلى الله ، فقد تأتى فرصة لم تكن في حسابه تجعل عمله يأتي بأبرك الشمرات ، على حين أنه إذا قعد عن العمل فقد لزمه إثم التقصير ، وضاع منه أجر الجهاد ، وحرم الإفادة قطعًا ، فائي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديًا؟ وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في صراحة ووضوح في الآية الكريمة : « **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَدَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعَذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَقَوَّنَ *** فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخْذَنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيْسِيٍّ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » (١) » (*) .

* * *

(١) الأعراف : ١٦٤ ، ١٦٥ .

(*) انظر : مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص (٥٢ - ٥٤) .

● المبشرات تدفع إلى المزيد من العمل :

والأمر الثاني الذى أريد التنبيه عليه هنا ، هو : أن المبشرات بمستقبل الإسلام ، التى ذكرناها ، لا ينبغى لنا أن نتكل عليها ، وننام على آذاننا ، ونخلد إلى الدعة والكسل ، وننتظر نصر الله ينزل علينا دون جهد بذله ، وجihad غارسه ، وعمل دؤوب نقوم به فى جانب حياتنا كلها ، نقوم ما اعوج منها ، ونصلح ما فسد ، ونبني ما تهدم ، ونقوى ما ضعف ، ونكمel ما نقص ، بروح المجددين ، لا بعقلية المقلدين .

نستلهم تراثنا ، ونجعله مناراً يهدينا ، لا قياداً يثقل حركتنا ، ويعوق انطلاقنا .

نقتبس الحكمة من أى وعاء خرجت ، فلا تقييد بمدرسة إسلامية واحدة ، ولا نلتزم مذهبًا واحدًا لا نخرج عنه ، بل نستفيد من كل المدارس والمذاهب والمشارب ، فى ضوء القواعد المتفق عليها ، رادين المشابهات إلى المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات ، والجزئيات إلى الكليات ، والفروع إلى الأصول .

بل نقتبس من مدارس الغرب ومناهجه وتجاربه كل ما ينفعنا ، ويكتنا أن نحوره ونطوره فى إطار معاييرنا و حاجاتنا وظروفنا ، حتى يلائمنا ، ويعدو جزءاً من منظومة حياتنا . ولا حرج علينا فى ذلك ، فالحكمة ضالة المؤمن أئى وجدها فهو أحق الناس بها .

لا بد لنا أن نخرج من سجن التخلف إلى باحة التقدم ، وأن ننمو نحواً حقيقياً ، اقتصادياً ، وبشرياً ، مادياً ومعنوياً ، وأن نجند كل طاقاتنا - التي أهدرنا أو عطلنا الكثير منها - لتنمية شاملة ، للحياة وللإنسان ، وأن نتخد من الإسلام أكبر حافر لخشد هذه الطاقات وتنقيتها ، ودفع عجلتها إلى الأمام بقوة قد تبلغ عشرة أضعاف الجهد العادي ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى في ميدان الجهاد : « إن يكُنْ مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مَّائَةً يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَهْمَمِ قَوْمٍ لَا يَفْقَهُونَ » (١) .

لقد أرشد القرآن إلى أن نصر الله لا يكون ولا يتم إلا بالمؤمنين ، كما أنه لا يكون إلا للمؤمنين . كما قال تعالى يخاطب رسوله الكريم : « هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ » (٢) .

فلا تتوقع أن تنزل ملائكة السماء التي نزلت في بدر أو في الأحزاب أو في حنين - على قوم فرغت قلوبهم من الإيمان ، أو خلت حياتهم من أخلاق الإيمان ، وأعمال المؤمنين ، فالله تعالى يقول في بدر : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبُّتوْا الَّذِينَ آمَنُوا » (٣) .

إن الرسالات لا تنتصر وحدها ، إنما تنتصر بأهلها ، والحق لا

(١) الأنفال : ٦٥

(٢) الأنفال : ٦٢

(٣) الأنفال : ٦٢

يعلو وحده ، إنما يعلو - وفق سنن الله - بدعاته ورجاله الذين
جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص ، كما قال الشاعر :

وشيمة السيف : أن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا في يدي بطل !
إن المبشرات بانتصار الإسلام يجب أن تمنحنا وقوداً متجدداً ،
لمزيد من العطاء والعمل الذي تحتاج إليه أمتنا على كل صعيد . ولا تطبع
الأمة أن يدها الله بنصره ، على ما بها من سوء الخصال ، وسيء
الفعال ، بل لا بد للأمة أن تغير ما بأنفسها حتى يغير الله ما بها .

لا تطبع الأمة أن تنتصر على اليهود ، وهي على حالها من
التخلف والتمزق ، والتعادي ، والعجز والكسيل ، والتسيب
والضياع .

يستحيل أن ينصر الله الكُسالي على العاملين ، والمخالفين على
المتحدين ، والفووضيين على المنظمين ، والمرجلين على المخططين ،
والمتسبيين على المنضبطةين ، والملفكريين في مصالحهم على المفكرين في
هموم أمتهم .

يستحيل أن تنتصر أمة تحارب أفضل عناصرها ، وتنكل بخيرة
أبنائها ، أعني : العناصر الإسلامية ، التي يشهد لها من عايشوها
أنها أذكى عقولاً ، وأظهر قلوباً ، وأنظف أيديها ، وأصدق عزائم ،
وأركى أخلاقاً ، وأقوم أعمالاً ، وأكثر بذلاً وتضحية ، من سائر
الفنان .

إنهم بريئون من ارتكاب الموبقات ، بل الصغار ، بل الشبهات ، حتى السيجارة لا يعرفونها ولا تعرفهم . إنهم رهبان الليل وفرسان النهار ، يعرفهم الليل قانتين ، والنهار جاهدين ، ويعرفهم الناس عاملين ، ويعرفهم ربهم مخلصين ، ولا نزكيهم على الله تعالى .

يستحيل أن تنتصر أمة أعظم ما يشغلها لعب الكرة ، وأهم ما يملأ صحفها المقروءة ، وإذا عتها المسومة والم蕊بة هو الغناء والرقص والتمثيل ، وأشهر نجوم المجتمع فيها ليسوا العلماء ولا الأدباء ، ولا المفكرين ، بل هم المطربون والمطربات ، والراقصون والراقصات ، والممثلون والممثلات ، الأحياء منهم والأموات !

يستحيل أن تنتصر أمة متوسط عمل الفرد فيها نحو نصف ساعة في اليوم ، في حين يعرق الناس في العالم المتقدم طوال اليوم ، ويکد ويکدح حتى يعود إلى بيته آخر النهار ، مکدواً مهدداً ، يخلد بسرعة إلى الراحة ليواصل عمله مبكراً في غده .

على القوى الموجهة للأمة ، المؤثرة في سيرها ، أن تتعاون فيما بينها للنهوض بها في كل الميادين ، وتعويض ما فاتها على مر السنين ، وسد الفجوة التي تباعد بينها وبين العالم المتقدم ، ومواجهة التحديات بعزم وإيمان ، معتمدة على تخطيط دقيق ، واستشراف مستقبلٍ بصير .

عليها أن تدرس الأمراض التي تشكو منها ، وتعرف أسبابها ،

وتعمل على علاجها ، وما خلق الله داء إلا خلق له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله .

عليها - في الجانب الاقتصادي - أن تعمل على زيادة الانتاج ، وترشيد الاستهلاك ، وعدالة التوزيع ، وسلامة التداول .

وفي الجانب الاجتماعي : أن تقوى الإخاء بين الأفراد ، والتعاون بين الطبقات ، والتضامن بين الشعوب ، وأن تقرب المسافة بين الأغنياء والفقراء ، وأن ترعى الأمومة والطفولة والشيخوخة ، وتقيم الحياة الأسرية على أساس مكينة تظلها السكينة والودة والرحمة .

وفي الجانب العقلي والثقافي : عليها أن تتحرر من آثار الغزو الفكرى ، والاستعمار الثقافى ، فى مجال التربية والتعليم ، ومجال الثقافة والإعلام ، فهذه هى التى تصنع عقول الناس ، وتنشئ اتجاهاتهم النفسية والفكرية .

وفي الجانب السياسى : عليها أن تقاوم الاستبداد والطغيان ، وترسّخ دعائم الشورى ، وترعى حقوق الإنسان ، وتربي الناس على ضرورة التناصح وفرضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتقويم العوج باليد من استطاع ، وباللسان لمن قدر عليه ، وبالقلب عند العجز ، وذلك أضعف الإيمان ، وأن تضع من الدساتير ما يفصل الحقوق والواجبات ، يميز بين السلطات ، ويقيم دولة المؤسسات ، ويسوى بين الناس فى الكرامة والحرية وتحمل المسؤولية . ولا يعطى امتيازاً لأحد على أحد إلا بالتفوي .

لقد بينا في كتابنا (أين الخلل ؟) الطاقات المعطلة في الأمة الإسلامية ، والطاقات المعطلة في الحركة الإسلامية ، ودعونا إلى إصلاح الخلل في الجانبين ، إن أردننا غداً أفضل ، ومستقبلاً أمثل .

لا بد أن يتعاون الدعاة والمصلحون لاستفراغ الجهد ، لتغيير الأمة من داخلها ، وتبعثة قواها الذاتية ، لتعوض ما فاتها ، وتتحقق بركب العالم المتتطور ، تأخذ أفضل ما عنده ، وتعطيه أفضل ما عندها . ولا ريب أن عندها الكثير الطيب المبارك ، الذي ورثته من رسالة الإسلام ، وحضارة الإسلام .

وإن الإسلام - الذي غير العرب قدّيماً ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعلهم رعاة الأمم ، بعد أن كانوا رعاة الغنم ! - قادر على أن يغيرهم اليوم ، ويعيدهم - كما يحب الله لهم - خير أمة أخرجت للناس ، وأن يجعل منهم (صحابة جدداً) بعثهم الله تعالى ، ليخرجو الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان والمذاهب والفلسفات إلى عدل الإسلام ، وقيم الإسلام .

إن الصحابة رضى الله عنهم كانوا موقنين - كل الإيقان - بأنهم منصورون ، وأن جندهم هم الغالبون ، وأن هذا وعد الله ، ولن يخلف الله وعده ، ولكن هذا الإيمان أو اليقين لم يقعدهم عن العمل الجاهد ، وعن الجهاد المر ، وعن البذل الدائم ، حتى يتحقق وعد الله ، فإنما يتحقق في الأرض وعد الله في السماء بهم ،

لَا بِغَيْرِهِمْ ، فَهُمْ أَدْوَاتُ الْقَدْرِ فِي تَحْقِيقِ الْوَعْدِ الإِلَهِيِّ . بَلْ هُمْ الْقَدْرُ الْمَوْعُودُ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

فَقَدْ رَوَوْا أَنَّ بَعْضَ قَادِهِ الْفَرَسِ سَأَلَ بَعْضَ قَادِهِ الصَّحَابَةِ فِي إِحْدَى مَعَارِكِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ وَمَا شَانْكُمْ ؟ فَقَالَ لَهُ : نَحْنُ قَدْرُ اللَّهِ ، ابْتَلَاكُمُ اللَّهُ بَنًا ، وَابْتَلَانَا بَكُمْ ، فَلَوْ كَتَمْتُ فِي سَحَابَةِ لَصَعْدَنَا إِلَيْكُمْ ، أَوْ لَهَبْطَتُمْ إِلَيْنَا !

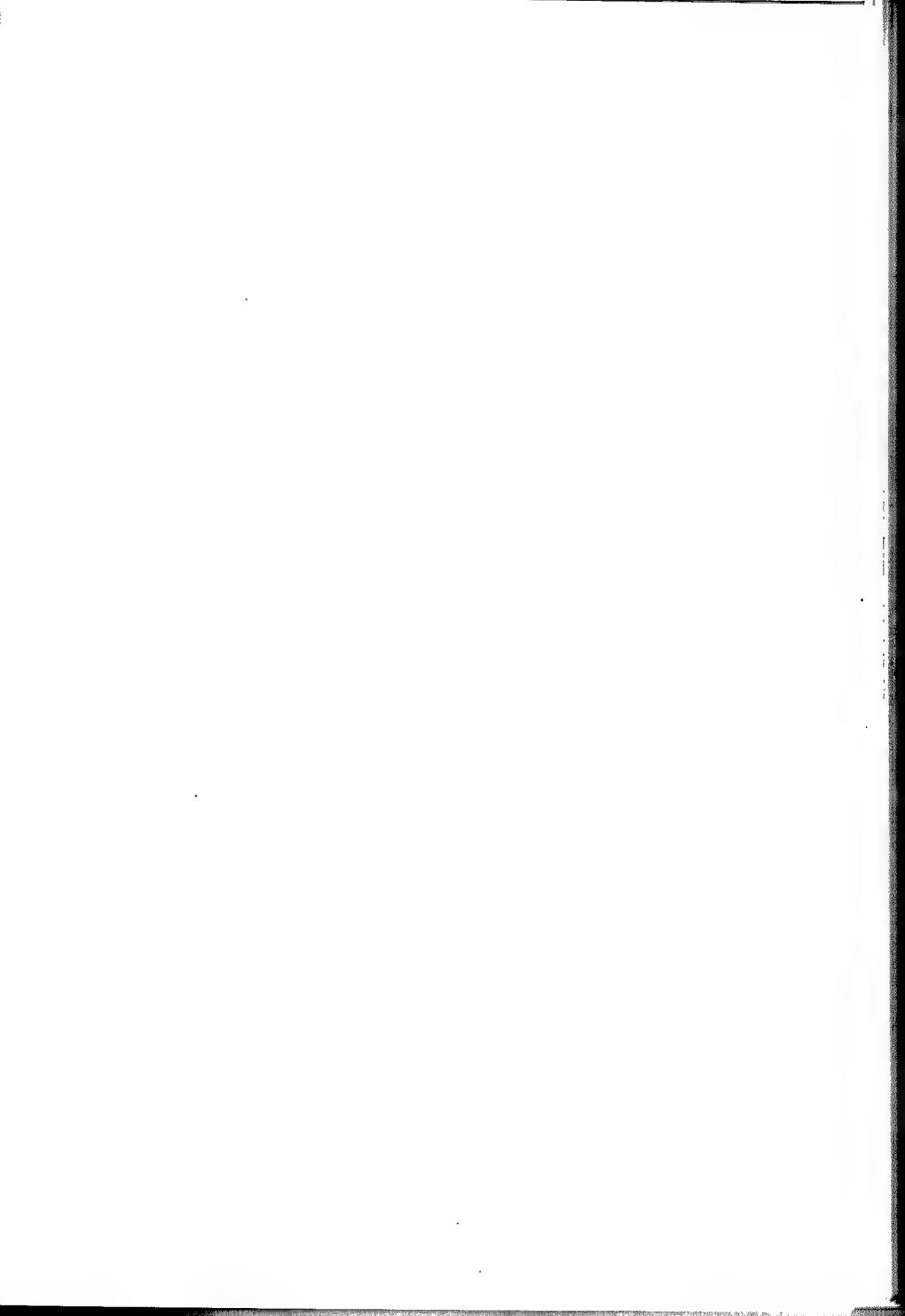
بِهَذِهِ الرُّوحِ الْقَوِيَّةِ الْمَوْتَيَّةِ الْآمِلَةِ يَجُبُ أَنْ خَجَابَهُ مُشَكَّلَاتِنَا ، وَنَوَاجِهَ مَعْوِقَاتِنَا مِنَ الدَّاخِلِ وَمِنَ الْخَارِجِ ، بَادِئَنِي بِالْدَّاخِلِ ، فَهُوَ أَسْ الْبَلَاءِ وَجَرْثِومَةِ الدَّاءِ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَوْجَهُنَا إِلَى ذَلِكَ حِينَ خَاطَبَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ انْكِسَارِ غُزْوَةِ أَحَدٍ فَيَقُولُ : ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتُكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبَّتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنَّ هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾ (١) .

فَلَنْمَضِ إِذْنَ عَلَى بَرْكَةِ اللَّهِ عَامِلِينَ مُصَمِّمِينَ ، فِي صِدْقٍ لَا يَعْرِفُ الرِّيفَ ، وَثَبَاتٌ لَا يَعْرِفُ التَّرْدَدَ ، وَعَزْمٌ لَا يَعْرِفُ الْكَلَلَ ، وَيَقِينٌ لَا يَعْرِفُ الشَّكَ ، وَأَمْلَ لَا يَعْرِفُ الْقَنْوَطَ ، وَجَهَادٌ لَا يَعْرِفُ الْقَعْدَوْدَ . ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهَدِيهِمْ سُبُّنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) .

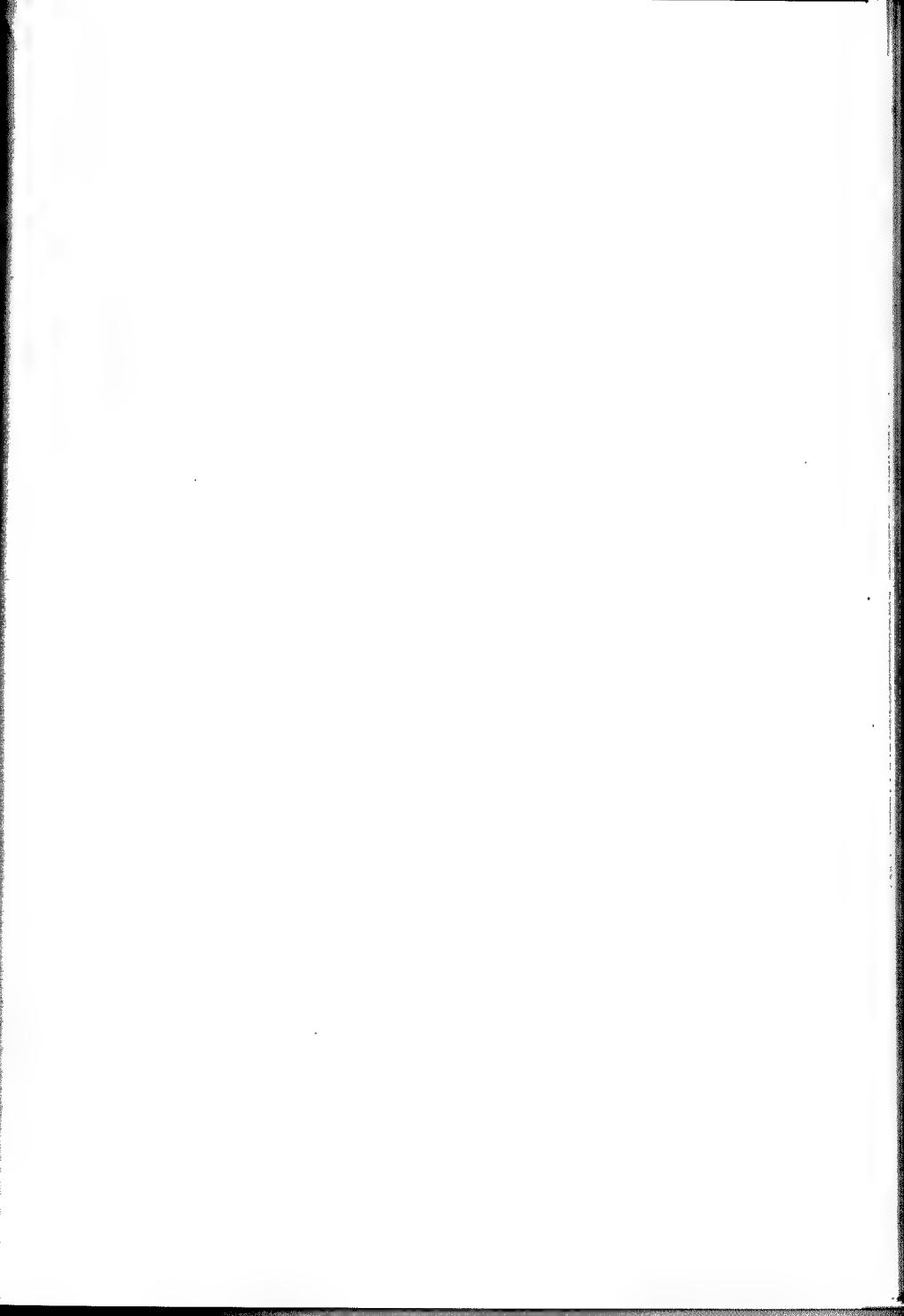


(٢) العنكبوت : ٦٩

(١) آل عمران : ١٦٥



أصوات
على أحاديث أسيء فهمها



الحديث (بدأ الإسلام غريباً)

س : من الأحاديث المشهورة على الألسنة والأقلام : حديث (بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً ، كما بدأ ، فظوبى للغرباء) .

فما مدى صحة هذا الحديث من ناحية ؟ وما المراد به ؟ وهل الكلمة (غريباً) من الغربة أو من الغرابة ؟ فقد سمعت بعض المحدثين في (الإذاعة) يؤكد أنها من (الغرابة والدهشة) وينفي أن تكون من (الغربة) .

وإذا كانت من الغربة كما هو الشائع والمتأذر ، فهل يعني هذا ضعف الإسلام وأفول نجمه ؟

وهل هناك دلائل على انتصار الإسلام مرة أخرى ، كما انتصر في القرون الأولى للهجرة ؟ .

ج : الحديث صحيح الإسناد بلا نزاع من أهل هذا الشأن ، وهو مروي عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم .

فقد رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة ، والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود ، وابن ماجه عن أنس ، والطبرانى عن سلمان وسهل بن سعد ، وابن عباس ، رضى الله عنهم جمیعاً ، كما في الجامع الصغير .

وقد رواه مسلم عن ابن عمر دون جملة (فطوبى للغرباء) .
وبهذا نعلم أن صحة الحديث لا كلام فيها ، وبقى الكلام فى
معناه .

ومن المؤسف أن كثيراً من الأحاديث المتعلقة بـ (آخر الزمان)
أو ما يسمى (أحاديث الفتنة) و (أشراط الساعة) يفهمها بعض
الناس فهماً يوحى باليأس من كل عمل للإصلاح والتغيير .

ولا يتصور أن يدعو الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه الأمة إلى اليأس والقنوط ،
وتترك الفساد يستشرى في الناس ، والمنكرات تنخر في عظام المجتمع ،
دون أن يصنع الناس شيئاً ، يقوّم ما أعوج ، أو يصلح ما فسد .

وكيف يتصور ذلك ، وهو - صلى الله عليه وسلم - يأمر بالعمل
لعمارة الأرض ، إلى أن تلقط الحياة آخر أنفاسها ، كما يتضح ذلك
من الحديث الشريف : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ،
فإن استطاع ألا تقوم - أى الساعة - حتى يغرسها ، فيلغرسها » ^(١) .

ومعنى هذا أنه لن يأكل من ثمر هذا الغرس ولا أحد من بعده ،
ما دامت الساعة قد قامت ، أو توشك أن تقوم .

إذا كان هذا مطلوباً في أمر الدنيا ، فأمر الدين أعظم وأجل ،
ولا بد من العمل من أجله إلى آخر رمق في هذه الحياة .

(١) رواه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب المفرد عن أنس ، وكذا
الطيساني والبزار ، وقال الهيثمي : رواه ثقات أثبات .

أما معنى الكلمة (غريباً) فالمتبارد أنها من (الغربة) لا من (الغرابة) بدليل آخر الحديث (فطوبى للغرباء) فالغرباء هنا جمع (غريب) والمراد به المتصرف بالغربة لا الغرابة .

وإنما كانت غربتهم من غربة الإسلام الذى يؤمنون به ويدعون إليه ، وهذا هو المعنى المفهوم من الكلمة (غريب) فى أكثر من حديث مثل (كن فى الدنيا كأنك غريب) رواه البخارى .

كما جاءت جملة أحاديث وروايات فيها زيادات فى هذا الحديث ، فى وصف (الغرباء) مما يؤكد أن المقصود هو الغربة لا الغرابة .

هذا إلى أن الواقع اليوم وفي عصور خلت ، يدل على غربة الإسلام في دياره ذاتها ، وبين أهلها أنفسهم . حتى إن من يدعو إلى الإسلام الحق يعني الاضطهاد والتنكيل ، أو الشنق أو الاغتيال !

ولكن هل هذه الغربة عامة وشاملة ودائمة ، أو هي غربة جزئية ومؤقتة ؟ فقد تكون في بلد دون آخر ، وفي زمن دون آخر . وبين قوم دون غيرهم ، كما ذكر ذلك المحقق ابن القيم رضي الله عنه .

والذى أراه : أن الحديث يتحدث عن دورات أو (موجات) تأتى وتذهب ، وأن الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوة والضعف ، والامتداد والانكماش ، والازدهار والذبول ، وفق سن الله التي لا تتبدل ، فهو كغيره خاضع لهذه السن الإلهية ، التي لا تعامل الناس بوجهين ، ولا تكيل لهم

بكيلين ، فما يجري على الأديان والمذاهب يجري على الإسلام ،
وما يجري على سائر الأمم يجري على أمّة الإسلام .

فالحديث ينبغي عن ضعف الإسلام في فترة من الفترات ، ودورة
من الدورات ، ولكنه سرعان ما ينهض من عثرته ، ويقوم من
كبوته ، ويخرج عن غربته ، كما فعل حين بدأ .

فقد بدأ غريباً ، ولكنه لم يستمر غريباً ، لقد كان ضعيفاً ثم قوى
مستخفياً ثم ظهر ، محدوداً ثم انتشر ، مضطهدًا ثم انتصر .
وسيعود غريباً كما بدأ ، ضعيفاً ليقوى ، ثم يقوى ، مطارداً
ليظهر ثم يظهر على الدين كله ، ملاحقاً مضطهدًا ليتشر ويتشر ،
ثم ينتصر وينتصر .

فلا دلالة في الحديث على اليأس من المستقبل إن أحسنا فهمه .
وما يدل على أن الحديث لا يعني الاستسلام أو اليأس ،
ولا يدعو إليه بحال : ما جاء في بعض الروايات من وصف
لهؤلاء (الغرباء) من أنهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من
السنة ، ويحييون ما أماته الناس منها .

فهم قوم إيجابيون بناؤون مصلحون ، وليسوا من السلبيين
أو الانعزاليين أو الاتكاليين ، الذين يدعون الأقدار تجري في اعتتها ،
ولا يحركون ساكناً ، أو ينبهون غافلاً .

ومن المفيد أن ننقل هنا ما كتبه الإمام ابن القيم حول هذا الحديث ،

عند شرح كلام شيخه الهروى فى باب (الغربة) من (منازل السائرين) إلى مقامات : «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ، فقال رحمة الله فى (مدارج السالكين) :

قال شيخ الإسلام (باب الغربة) قال الله تعالى : «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّنَ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ»^(۱) ، قال ابن القيم معلقاً وشارحاً :

(استشهاده بهذه الآية في هذا الباب : يدل على رسوخه في العلم والمعرفة ، وفهم القرآن ، فإن الغباء في العالم : هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية ، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله : «بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ» ، فطوبى للغباء . قيل : ومن الغباء يا رسول الله ؟ قال : «الذين يصلحون إذا فسد الناس»^(۲) . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن زهير عن عمرو بن أبي عمرو - مولى

(۱) هود : ۱۱۶

(۲) أورده الهيثمى في (مجمع الزوائد) من حديث سهل بن سعد الساعدى ، بنحوه ، وقال : رواه الطبرانى في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح ، غير بكير بن سليم ، وهو ثقة : (۲۷۸/۷) ، ومن حديث جابر ، وقال : رواه الطبرانى في «الأوسط» ، وفيه عبد الله بن صالح ، كاتب الليث ، وهو ضعيف وقد وثق : (۲۷۸/۷) .

المطلب بن حنطباً - عن المطلب بن حنطباً عن النبي ﷺ قال : « طوبى للغرباء ». قالوا : يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال : « الذين يزيدون إذا نقص الناس » (١) .

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً - لم ينقلب على الراوى لفظه وهو : « الذين ينقصون إذا زاد الناس » - فمعناه : الذين يزيدون خيراً وإيماناً وتقوى ، إذا نقص الناس من ذلك . والله أعلم .

وفي حديث الأعمش عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « التزاع من القبائل » (٢) .

(١) بحثت عن الحديث في مظانه في المستند فلم أجده ، وكذلك لم أجده في (مجمع الزوائد) للبيهقي ، ولا أشار إليه في المعجم المفهرس للكتب التسعة . بل لم أجده المطلب بن حنطباً ضمن الصحابة الرواة في المستند ، وفقاً لفهرس الشيخ الألباني . فإذاً يكون ساقطاً من المطبع كما تبيّنت ذلك مع عقبة بن مرة الجهنمي ، فإن له ثلاثة أحاديث في المستند ، ليس في المطبع إلا واحد منها ، أو يكون أحمد رواه خارج المستند . والله أعلم .

(٢) الحديث في الدارمی برقم (٢٧٥٧) وابن ماجه برقم (٣٩٨٨) ، والترمذی برقم (٢٦٣١) بدون السؤال وقال : حسن غريب صحيح ، والبيهقی في الزهد برقم (٢٠٨) ، والبغوى في شرح السنة ، وصححه : (١١٨/١) ، حديث (٦٤) - نشر المكتب الإسلامي .

وفي حديث عبد الله بن عمرو قال : قال النبي ﷺ ذات يوم . ونحن عنده - « طوبي للغرباء » . قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « ناس صالحون قليل في ناس كثير ، من يعصيهم أكثر من يطعهم » (١) .

وقال أحمد : حدثنا الهيثم بن جبل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « إن أحب شيء إلى الله الغرباء » . قيل : ومن الغرباء ؟ قال : « الفرارون بدينهم . يجتمعون إلى عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيمة » (٢) .

وفي حديث آخر « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « الذين يحيون سنتي ، ويعلمونها الناس » (٣) .

(١) الحديث في المسند وصححه الشيخ شاكر ، كذا أورده الهيثمي : (٢٧٨/٧) ، وقال : رواه أحمد والطبراني في « الأوسط » وفيه ابن لهيعة ، وفيه ضعف ، وذكره في موضع آخر جزءاً من حديث وزعاه إلى الطبراني في الكبير ، وقال : له فيه أسانيد ، ورجال أحدهما رجال الصحيح : (٢٥٦/١٠).

(٢) رواه أحمد في (الزهد) ص ٧٧ ، وليس في (المسند) كما رواه البهقى في الزهد برقم (٢٠٦) .

(٣) رواه البهقى في الزهد من حديث كثير بن عبد الله بن عوف ، عن أبيه ، عن جده ، وهو ضعيف جداً رقم (٢٠٧) كما رواه الترمذى بهذا =

وقال نافع عن مالك (دخل عمر بن الخطاب المسجد ، فوجد
معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي ﷺ ، وهو يبكي ، فقال له
عمر : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ هلك أخوك ؟ قال : لا ،
ولكن حدثنا حديثه حبيبي ﷺ ، وأنا في المسجد ، فقال : ما هو ؟
قال : إن الله يحب الأخفiae الآتقياء الآبراء . الذين إذا غابوا لم
يفتقدوا . وإذا حضروا لم يعرفوا . قلوبهم مصابيح الهدى .
يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة) ^(١) .

فهؤلاء هم الغرباء المدحوحون المغبوطون . ولقلتهم في الناس
جداً : سموا (غرباء) فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات ،
فأهل الإسلام في الناس غرباء ، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء ،
وأهل العلم في المؤمنين غرباء ، وأهل السنة - الذين يميزونها من
الأهواء والبدع - فيهم غرباء ، والداعون إليها الصابرون على أذى

= السندي برقم (٢٦٣٢) ، وقال : حسن ، وفي بعض النسخ : حسن صحيح !!
ولفظه : (فطوبى للغرباء ، الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي) .
وهذا مما أخذته عليه التقاد ، ولعله حسنة أو صحّحه لكثره شواهده .

(١) الحديث بنحو هذا اللفظ عند ابن ماجه (٣٩٨٦) ، وضعفه في الزوائد
بابن لهيعة ورواه الحاكم بسند آخر ، وقال : صحيح ولا علة له عن زيد بن
أسلم : (٤/١) ، ووافقه الذهبي وانظر : كتابنا المنتقى من الترغيب
والترهيب حديث رقم (١٩) ورواه البيهقي في الزهد بسند آخر ، برقم
(١٩٧) ، عن ابن عمر .

المخالفين : هم أشد هؤلاء غربة . ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً ، فلا غربة عليهم ، وإنما غربتهم بين الأكثرين ، الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم : ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنِ فِي الْأَرْضِ يُضْلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١) فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه ، وغربتهم هي الغربة الموحشة ، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم . كما قيل :

فليس غريباً من تناهت دياره ولكن من تأنَّ عنـه غريب !

ولما خرج موسى عليه السلام هارباً من قوم فرعون انتهى إلى مدين ، على الحال التي ذكر الله ، وهو وحيد غريب خائف جائع ، فقال : (يا رب وحيد مريض غريب . فقيل له : يا موسى ؛ الوحيد : من ليس له مثلى أنيس ، والمريض : من ليس له مثلى طبيب . والغريب : من ليس بيـنى وبيـنه معاملة) .

فالغربة ثلاثة أنواع : غربة أهل الله وأهل سُنَّة رسوله بين هذا الخلق . وهى الغربة التى مدح رسول الله ﷺ أهلها . وأخبر عن الدين الذى جاء به : أنه (بدأ غريباً) ، وأنه (سيعود غريباً كما بدأ) ، وأن (أهله يصيرون غرباء) .

وهذه الغربة قد تكون فى مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون قوم ، ولكن أهل هذه (الغربة) هم أهل الله حقاً .

(١) الأنعام : ١١٦

فإنهم لم يأowوا إلى غير الله ، ولم يتسبوا إلى غير رسوله ﷺ ،
ولم يدعوا إلى غير ما جاء به ، وهم الذين فارقوا الناس أحوج
ما كانوا إليهم . فإذا انطلق الناس يوم القيمة مع آلهتهم بقوا في
مكانتهم . فيقال لهم : (ألا تنطلقون حيث انطلق الناس ؟ فيقولون :
فارقنا الناس ، ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وإننا ننتظر ربنا الذي
كنا نعبد) .

فهذه (الغربة) لا وحشة على صاحبها . بل هو آنس ما يكون
إذا استوحش الناس . وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا . فوليء
الله ورسوله والذين آمنوا ، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه .

وفي حديث القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال - عن الله
تعالى - : (إن أغبط أوليائي عندي : المؤمن ، خفيف الحاذ ، ذو
حظ من صلاة . أحسن عبادة ربه ، وكان رزقه كفافاً ، وكان مع
ذلك غامضاً في الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وصبر على ذلك
حتى لقى الله . ثم حلت منيه ^(١) ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه ^(٢)) .

(١) نص الترمذى : ثم نقض بيده فقال : عجلت منيه .. إلخ .. والمراد
بقوله : أغبط الناس : أحق من يتعلّم الناس مثل حاله . وخفيف الحاذ ،
أى : خفيف الظهر من العيال . كفافاً ، أى : يقدر الحاجة ، لا يشار إليه
بالأصابع ، أى : أنه مغمور غير مشهور ، ومعنى (عجلت منيه) : أنه
لم يعمر طويلاً ، فقد يصاب أو يستشهد في سبيل الله . قل تراثه : لم يترك
مالاً كثيراً . قلت بواكيه : ربما لموته في الغربة ، فلا أحد يعرفه يبكي عليه .
(٢) رواه الترمذى في الزهد (٢٣٤٨) من طريق عبيد الله بن زحر عن على =

ومن هؤلاء الغرباء : من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له . لو أقسم على الله لأبره) ^(١) .

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : كل ضعيف أغبر ، ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » ^(٢) .

وقال الحسن : المؤمن في الدنيا كالغريب ، لا يجزع من ذلها ،

= ابن زيد عن القاسم ، وهو إسناد ضعيف ، وإن حسن الترمذى ، كما رواه ابن ماجه بنحوه بإسناد آخر (٤١١٧) ، وفيه راويان ضعيفان كما في الزوائد للبوصيري .

(١) أورده الهيثمى بنحوه في « المجمع » : (١٠/٢٦٤) ، وقال : رواه الطبرانى في « الأوسط » ، وفيه عبد الله بن موسى التميمى وقد وثق ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، عن جابر بن هرم ، وقد وثقه ابن حبان على ضعفه ، وأورد نحوه من حديث ابن مسعود ، وإسناده أجود ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) الحديث رقم (٢٦٢٢) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١١٥) ، وفيه سويد بن عبد العزيز ، ضعفوه ، وحسن بعضهم لشهادته ، انظر : فيض القدير : حديث (٢٨٥٢) .

ولا ينافس في عزها . للناس حال وله حال . الناس منه في راحة ،
وهو من نفسه في تعب .

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي ﷺ : التمسك
باليسنة ، إذا رغب عنها الناس . وترك ما أحدثوه ، وإن كان هو
المعروف عندهم ، وتجريد التوحيد ، وإن أنكر ذلك أكثر الناس .
وترک الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله ، لا شيخ ، ولا طريقة ،
ولا مذهب ، ولا طائفة ، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله
بالعبودية له وحده ، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده ، وهؤلاء
هم القابضون على الجمر حقاً ، وأكثر الناس - بل كلهم - لاثم
لهم . فلغرbeitهم بين هذا الخلق : يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ،
ومفارقة للسود الأعظم !

ومعنى قول النبي ﷺ : « هم النَّزَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ » : أن الله
سبحانه بعث رسوله ، وأهل الأرض على أديان مختلفة ، فهم
بين عباد أوثان ونيران ، وعباد صور وصلبان ، ويهدون وصabitة
وفلاسفة ، وكان الإسلام في أول ظهوره غريباً . وكان من أسلم
منهم ، واستجابة لله ولرسوله : غريباً في حيه وقبيلته ، وأهل
وعشيرته .

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعاً من القبائل ، بل آحاداً
منهم . تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم ، ودخلوا في الإسلام ،

فكانوا هم الغرباء حقاً حتى ظهر الإسلام ، وانتشرت دعوته ، ودخل الناس فيه أفواجاً ، فزالت تلك الغربة عنهم ، ثم أخذ في الاغتراب والترحال ، حتى عاد غريباً كما بدأ ، بل الإسلام الحق - الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره ، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة . فالإسلام الحقيقي غريب جداً . وأهله غرباء أشد الغربية بين الناس .

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً ، غريبة بين الاثنين وسبعين فرقة . ذات أتباع ورؤسات ، ومناصب وولايات . ولا يقوم لها سوق إلا بخلافة ما جاء به الرسول ؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم ، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي متنهى فضيلتهم وعلمهم ، والشهوات التي هي غaiات مقاصدهم وإرادتهم ؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم ، وأطاعوا شيخهم ، وأعجب كل منهم برأيه ؟ كما قال النبي ﷺ : « مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحاماً مطاعماً ، وهو متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، ورأيت أمراً لا يد لك به ، فعليك بخاصة نفسك ، وإياك وعوامهم . فإن وراءكم أياماً صبر الصابر

فيهم كالقابض على الجمر » . (ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة ^(١) ، ففي سن أبي داود والترمذى - من حديث أبي ثعلبة الخشنى - قال : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يُضْرِبُكُم مَّنْ ضَلَّ إِذَا هُدِيَتْمُ » ^(٢) ، فقال : بل اتّمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحّاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام ، فإن من وراءكم أيام الصبر ، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله . قلت : يا رسول الله ، أجر خمسين منهم ؟ قال : « أجر خمسين منكم » ^(٣) وهذا الأجر إنما هو لغربته بين الناس ، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وأرائهم .

(١) وهذا يقوى قول الحافظ ابن عبد البر في أن تفضيل قرن الصحابة تفضيل للمجموع لا لكل فرد ، باستثناء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وأهل بدر وأهل أحد ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن كان له فضيلة خاصة من الصحابة ، وهذا يفتح باب الأمل للأجيال اللاحقة ، ويفيده حديث الترمذى : « مثل أمتى كمثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » .

(٢) المائدة : ١٠٥

(٣) رواه أبو داود في الملاحم برقم (٤٣٤١) ، والترمذى في التفسير برقم

(٣٠٦٠) ، وقال حسن غريب ، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤) .

فإذا أراد المؤمن ، الذى قد رزقه الله بصيرة فى دينه ، وفقها فى سنة رسوله ، وفهمًا فى كتابه ، وأراه ما الناس فيه : من الأهواء والبدع والضلالات ، وتنكبهم عن الصراط المستقيم ، الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط : فليوطن نفسه على قبح الجهل ، وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وإزائهم به ، وتنفير الناس عنه ، وتحذيرهم منه ^(١) ، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ ، فأما إن دعاهم إلى ذلك ، وقدح فيما هم عليه ، فهناك تقوم قيامتهم ، ويغدون له الغواائل ، وينصبون له الحبائل ، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجاله .

فهو غريب فى دينه لفساد أديانهم ، غريب فى تمسكه بالسنّة ، لتمسکهم بالبدع ، غريب فى اعتقاده ، لفساد عقائدهم . غريب فى صلاته ، لسوء صلاتهم . غريب فى طريقه ، لضلال وفساد طرقهم . غريب فى نسبته ، لمخالفة نسبهم . غريب فى معاشرته لهم ، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم .

وبالجملة : فهو غريب فى أمور دنياه وآخرته ، لا يجد من العامة

(١) في عصرنا دخل عنصر يزيد من غربة المؤمنين الداعين إلى الله ، وإلى كتابه وسنة نبيه ، وهو اضطهاد السلطات الحاكمة لهم ، ومعارضتها لهم ، واستخدام كل ما تملك من قوة لإيذائهم والتضييق عليهم ، ثم كيد القوى المعادية للإسلام ، وما أكثرها عدداً ، وأقواها عدة ، وأشدتها مكرًا !

مساعداً ولا معيناً . فهو عالم بين جهال ، صاحب سنة بين أهل
بدع ، داع إلى الله ورسوله بين دعاء إلى الأهواء والبدع . أمر
بالمعروف ، ناه عن المنكر ، بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر
المعروف (١) أهـ .

* * *

● بشائر من القرآن بظهور الإسلام من جديد :

أما ما سأله الأخ من وجود بشائر ودلائل على انتصار
الإسلام في المستقبل ، فهى كثيرة ومتوافرة ، في كل من القرآن
والسنة ، وإن كان كثير من الخطباء والوعاظ يغفلونها ، ولا
يبرزون إلا ما يوحى ظاهره بالقتوط ، وقد ذكرنا جملأً من هذه
البشائر من قبل ، فليرجع إليها .

ومن هذه البشائر :

١ - ظهور الصحوة الإسلامية ، التي أعادت للأمة الثقة
 بالإسلام ، والرجاء في غده ، وقد أقلقت أعداء الإسلام في
الداخل والخارج ، وهي جديرة أن تقود الأمة إلى مواطن النصر ،
إذا قدر الله لها أن يتولى زمامها المرشدون الراشدون ، من أولى

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم :

(جـ١ ١٩٤ - ٢٠٠) ط السنة المحمدية .

الأيدي والأبصار ، الذين آتاهم الله الفقه في سنن الله ، والفقه في دين الله ، والحكمة في النظر ، والحكمة في العمل : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

٢ - انهيار الأنظمة الشمولية ، وخصوصاً الشيوعية التي زعمت يوماً أنها ستغزو العالم ، وترث الأديان ، وتهزم الفلسفات ، والتي لقيت أولى هزائمها على أيدي إخواننا المجاهدين في أفغانستان ، والذين انتصروا بأسلحتهم العتيقة على أعتى دولة ملحدة في التاريخ .

لقد سقطت قلاع الشيوعية واحدة بعد الأخرى ، بدءاً بالاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية ، وإنتهاء بألانيا .



(١) البقرة : ٢٦٩

الحديث (لا يأتي عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه)

س : كنت أقرأ في كتاب ديني ، فصادفني فيه حديث اقشعر له جلدي ، ولم أكد أصدقه لأول وهلة ، فالحديث يقول فيه النبي ﷺ : « لا يأتي عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه » .

ولما سألت عنه بعض العلماء الذين لهم معرفة بالحديث أخبرنى بأن الحديث صحيح ، وأنه من روایة البخارى ، فأسقط فى يدى ، فماذا عسى أن أقول إذا كان الحديث فى صحيح البخارى ، أصح كتاب فى الإسلام بعد كتاب الله تعالى ؟

فهل معنى هذا الحديث أننا فى انحدار دائم ، وتدور مطرد ، وأننا ننتقل من حسن إلى سيئ ، ومن سيئ إلى أسوأ ، ومن أسوأ إلى ما هو أشد سوءاً ، حتى تقوم الساعة ؟

هذا مع أن هناك كثيراً من الناس يعتقدون عكس هذا تماماً : أن الحياة تترقى ، والدنيا تتطور ، والإنسان يزداد كل يوم علمًا بالعالم من حوله ، ومن تحته ومن فوقه حتى وصل إلى القمر في السماء !

ثم إن الحديث يلقى في نقوسنا أن لا أمل في شيء ، ولا نجاة لنا مما نحن فيه ، ما دمنا ننحدر إلى الهاوية يوماً بعد يوم ، فهذا قدر كتبه الله علينا ، وسنة صارمة لازمة دائمة لا بد أن تخضع لها.

حتى تقوم الساعة على لکع ابن لکع أى کافر ابن کافر ، كما سمعنا من السادة العلماء .

ولقد علمت من بعض الأخوة المتبعين لما تكتبون بأن لكم في هذا الحديث تأویلاً أو دعتموه بعض كتبكم ، أرجو أن تدلنی عليه ، عسى أن يزیح ما بنفسي من قلق ، وما بقلبي من حيرة وبلبة .

جزاکم الله عن العلم والإسلام خير الجزاء .

م . ک . ع

الرباط - المغرب

* ج : الحديث المذکور رواه الإمام البخاري في جامعه الصحيح ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، فهو حديث صحيح من ناحية سنته ، ولكن الآفة تأتي هنا من فهمه فهماً يخالف سنن الله ، أو حقائق العلم ، أو ثوابت الواقع ، ولا يمكن أن يأتي الدين بما يخالف ذلك ، لأن الدين حق ، وهذه الأشياء المذکورة حق ، والحق لا يتناقض ، فإذاً أن يكون لهذه الأشياء تفسير غير ما يبدو لنا ، أو يكون للنص الديني تأویل غير الظاهر المتادر منه .

وأحاديث (الفتنة) وما يتعلّق بها يسمى (آخر الزمان) أو (أشراط الساعة) يكثر فيها سوء الفهم ، ولذا ينبغي التأمل الطويل في معانيها ، حتى لا يتخدّها الناس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل ، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير .

والحديث المذكور غموض لهذا النوع من الأحاديث . وقد تعرضت
لبيان معناه ، ورد الأفهام الخاطئة التي أحاطت به ، وذلك في كتابي
(كيف نتعامل مع السنة النبوية) وكان مما قلته في ذلك :

* *

• هل كل زمان شرٌ مما قبله ؟

روى البخاري بسنده إلى الزبير بن عدى ، قال : أتينا أنس بن
مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : إصبروا ، فإنه لا
يأتى عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم ،
سمعته من نبيكم ﷺ .

يتخذ بعض الناس من هذا الحديث تكأة للقعود عن العمل ،
ومحاولة الإصلاح والإنقاذ ، مدعياً أن الحديث يدل على أن الأمور
في تدهور دائم ، وسقوط مستمر وهو متابع ، من درك إلى درك
أسفل منه ، فهي لا تنتقل من سيئ إلا إلى أسوأ ، ولا من أسوأ
إلا إلى الأسوأ منه . حتى تقوم الساعة على شرار الناس ويلقى الناس
ربهم .

وآخرون توقفوا في قبول الحديث ، وربما تعجل بعضهم فرداً ،
لأنه في ظنه يدعو :

أولاً : إلى اليأس والقنوط .

وثانياً : إلى السلبية في مواجهة الطغاة من الحكم المترفين .

وثالثاً : يعارض فكرة (التطور) التى قام عليها نظام الكون والحياة .

ورابعاً : ينافي الواقع التاريخي لل المسلمين .

خامساً : يعارض الأحاديث التى جاءت فى ظهور خليفة يلأ الأرض عدلاً (وهو الذى عرف باسم المهدى) وفى نزول عيسى ابن مريم ، وإقامته لدولة الإسلام ، وإعلاء كلمته فى الأرض كلها .

ومن الحق علينا أن نقول : إن السابقين من علمائنا قد وقفوا عند هذا الحديث مستشكلين (الإطلاق) فيه . يعنون بالإطلاق ما فهم من الحديث : أن كل زمن شر من الذى قبله ، مع أن بعض الأزمنة تكون فى الشر دون الذى قبلها ، ولو لم يكن فى ذلك إلا زمن عمر ابن عبد العزيز ، وهو بعد زمن الحجاج - الذى عمّ الشكوى منه - بيسير ، وقد اشتهر الخير الذى كان فى زمن عمر بن عبد العزيز ، بل لو قيل : إن الشر أضمحل فى زمانه ، لما كان بعيداً ، فضلاً عن أن يكون شرًا من الذى قبله .

وقد أجابوا عن هذا بعده أجوبة :

أ - فالإمام الحسن البصري حمل الحديث على الأكثر الأغلب ، فقد سُئل عن عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج ، فقال : لا بد للناس من تنفيسي !

ب - وجاء عن ابن مسعود رضى الله عنه من قوله : (لا يأتي

عليكم زمان إلا وهو أشر مما كان قبله ، أما إنني لا أعني أميراً خيراً من أمير ، ولا عاماً خيراً من عام ، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون ، ثم لا تجدون منهم خلقاً ، ويجيء قوم يفتون برأيهم) وفي لفظ عنه : (فيثلمون الإسلام ويهدمونه) ورجمع الحافظ في (الفتح) تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشريعة هنا ، قائلاً : وهو أولى بالاتباع .

ولكنه في الواقع لا ينفي الاستشكال من أساسه ، فالنصوص تدل على أن في العيب أدواراً للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته ، ولو لم يكن إلا زمن المهدى والمسيح في آخر الزمان لكتفى .

والتاريخ يثبت أنه قد جاءت فترات ركود وجمود في العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد ، ويكتفى أن نذكر مثلاً من ظهر في القرن الثامن من العلماء والمجددين - بعد سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد ، وتدور الأوضاع في القرن السابع ، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وسائر تلاميذه في الشام ، والشاطبي في الأندلس ، وابن خلدون في المغرب ، وغيرهم من ترجم لهم ابن حجر في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) .

وفي العصور التي تلت ذلك نجد مثل ابن حجر ، والسيوطى في مصر ، وابن الوزير في اليمن ، والدهلوى في الهند ، والشوكانى والصناعى في اليمن ، وابن عبد الوهاب في نجد ، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجددين .

وهذا ما جعل الإمام ابن حبان في صحيحه يرى أن حديث أنس ليس على عمومه ، مستدلاً بالأحاديث الواردة في المهدى ، وأنه يملاً الأرض عدلاً ، بعد أن ملئت جوراً ^(١) .

ج - ولهذا أرى أن أرجع التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ في (الفتح) بقوله : (ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة ، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك ، فيختص بهم ، فأما من بعدهم فلم يقصد في الخبر المذكور ، لكن الصحابي فهم التعميم - فلذلك أجاب من شكا إليه الحاجاج بذلك وأمرهم بالصبر ، وهم - أو جلهم - من التابعين) ^(٢) أ . ه .

وعلى هذا التفسير يحمل كلام ابن مسعود أيضاً : فهو خاص بأزمنة من كان يخاطبهم من الصحابة والتابعين ، وقد توفي في زمن عثمان رضي الله عنهما .

وأما زعم من زعم أن الحديث يتضمن دعوة إلى السكوت على الظلم والصبر على التسلط والجبروت ، والرضا بالمنكر والفساد ، ويويد السلبية في مواجهة الطغاة المتجررين في الأرض ...

فالرد على ذلك من عدة أوجه :

(١) فتح الباري : ج ١٦ ، ص ٢٢٨ - ط الحلبي .

(٢) المرجع السابق .

أولاً : إن القائل (أصبروا) هو أنس رضى الله عنه ، فليس هو من الحديث المرفوع ، وإنما استنبطه منه ، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك ما عدا المقصود عَزَّوَجَلَّ .

ثانياً : إن أنسا لم يأمرهم بـ (الرضا) بالظلم والفساد ، وإنما أمرهم بـ (الصبر) وفرق كبير بين الأمرين ، فإن الرضى بالكفر كفر ، وبالنكر منكر ، أما الصبر فقلما يستغنى عنه أحد ، وقد يصبر المرء على الشيء ، وهو كاره له ، ساع في تغييره .

ثالثاً : إن من لم يملق القدرة على مقاومة الظلم والجبروت ، ليس له إلا أن يعتصم بالصبر والأناء ، مجتهداً أن يعد العدة ، ويتخذ الأسباب ، معتقداً بكل من يحمل فكرته ، متهازاً الفرصة المواتية ، ليواجه قوة الباطل بقوة الحق ، وأنصار الظلم بأنصار العدل ، وضد الطاغوت بجند الله .

وقد صبر النبي عَزَّوَجَلَّ ثلاثة عشر عاماً في مكة على الأصنام وعبادها ، فيصل إلى المسجد الحرام ، ويطوف بالکعبه وفيها وحولها ثلاثة وستون صنماً ، بل طاف في السنة السابعة من الهجرة مع أصحابه في عمرة القضاء ، وهو يراها ولا يمسها ، حتى آتى الوقت المناسب يوم الفتح فحطمتها .

ولهذا قرر علماؤنا : أن إزالة المنكر إذا ترتب عليه منكر أكبر منه وجوب السكوت عنه حتى تغير الأحوال .

وعلى هذا لا ينبغي أن يفهم من الوصية بالصبر الاستسلام للظلم والطغيان بل الانتظار والترقب حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين .

رابعاً : إن الصبر لا يمنع من قول كلمة الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام الطغاة المتألهين ، وإن لم تكن واجبة على من يخاف على نفسه أو أهله ومن حوله ، فقد جاء في الحديث : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ، « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائز فأمره ونهاه فقتله » .



حديث (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم)

لقد استنبط بعض الباحثين المعاصرین من حديث « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » مقولۃ غریبة ، مضمونها : أن الإنسانیة التي يحتضنها الإسلام تقدم نحو ما هو أسوأ ، لا نحو ما هو أفضل ، وأنّ هذا التقدم إلى الأسوأ حتميّ لا رادّ له ، وفقاً لهذا الحديث وأمثاله .

ولهذا يرجح أن هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة ، إما لتبیرير ما حدث بالفعل ، إذا فرضنا أن الواضعین هم مسلمون فعلاً ، وإما لتوجيه مسیرة الإسلام في طريق الیأس ، إذا فرضنا أن الواضعین منافقون (۱) .

والحق أن الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام ، لم يطعن عالم سنتی ولا معتزلی - فيما أعلم - في سنته أو متنه ، بل ذكر ابن حجر والسيوطی وغيرهما من أئمة النقل أنه من المواتر (۲) .

(۱) انظر : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث - للدكتور فهمی جدعان ص ۲۱ ، وما بعدها - طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(۲) انظر : نظم المتأثر في الحديث المواتر . للكتابی ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، حديث رقم (۲۴۱) .

فاعتبار هذا الحديث موضوعاً : اتهام للأمة كلها بالجهل والغباء ، وترويج الباطل ، واجتماعها على الضلال طوال تلك العصور ، وهذا مدخل لنصف الدين كله .

أما ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث ، وما رتبه عليه من نتائج ، فهو غير مسلم له .

فالحديث إنما دلّ على فضل الجيل الذي تلقى عن رسول الله ﷺ ، وتربي في حضانة النبوة ، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله ، ومن هدى رسول الله ، وحمله القدر من المهام ما لم يحمله غيره ، فهو الجيل الذي نقل القرآن للأمة ، وروى لها السنن ، وفتح الله على يديه البلاد ، وهدى به العباد . ثم الجيل الذي تتلمذ على هؤلاء الأصحاب ، واقتبس من مشكّاتهم ، واقتفي آثارهم ، والجيل الثالث الذي سار على دربهم واتبعهم بإحسان ، فرضى الله عنهم ، ورضوا عنه .

ولا يشك دارس منصف أن (الإشعاع الروحي) لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاغة ، كان من القوة والعمق والسعّة ، بحيث لا يلحقه جيل آخر ، وهذا في الجملة لا في التفصيل ، وفي أمر الدين والتقوى لا في أمر الحياة والعلم وال عمران ، فهذه قد تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضّلة في الالتزام الديني .

وقد بشرّ الرسول ﷺ أمه أنهم سيرثون مالك كسرى وقيصر ، وسينفقون كنوزهما في سبيل الله ، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يوماً ، وأن الرخاء سيبلغ مدى لا يكاد يجد ذو المال يومها من يقبل منه الصدقة ، وأن الأمن سيستتبّ حتى أن المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام ، لا تخاف إلا الله ، وأن أرض العرب ستعود يوماً مروجاً وأنهاراً . فهل يعتبر هذا كله (تقدماً إلى الأسوأ)؟ !

إن أي قارئ غير متغصّب ولا متعسف للتاريخ يعلم أن الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ طوروا كثيراً من أمور الحياة ، وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم تكن في عصر النبوة ، وهم الذين أمرنا أن نتبع سنتهم ، ونبعضّ عليها بالنواخذة ، فهي امتداد للسنة النبوية المطهّرة .

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين في عهد الأمويين والعباسيين ، يبتكرّون ويضيفون أشياء لم تكن في العصر النبوى ولا العصر الراشدى ، أقرّهم عليها علماء الأمة ، وانعقد الإجماع على مشروعيتها .

ويكفى أن تم فيها استبحار علوم الدين واللغة ، وتدوينها وتأصيلها ، وظهور المدارس العلمية والفكريّة في شتى أنواع العلوم والأداب ، ثم اقتباس علوم الأمم الأخرى ، عن طريقة الترجمة ، ثم تدارسها وإنضاجها وتهذيبها ، وإعمال يد التعديل والتحسين

والتحوير فيها ، بالحذف والإضافة والتغيير ؛ والتقديم والتأخير ، حتى تنسجم مع المزاج العام للأمة ، وتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها ، وتجد لها مكاناً في حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية . ثم ابتكار علوم جديدة كاملة ، لم يعرفها السابقون .

وفي هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلامية الفارعة الرائعة ، ثابتة الأصول ، بأسقة الفروع ، وارفة الظلال ، مباركة الشمار .

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة في مختلف مجالاتها ، وشتبه فروعها ، بدعوى أن هناك أحاديث تغلّب أيديهم ، أم تقيد أرجلهم ، أو تشل تفكيرهم ، محتمة عليهم (التقدم إلى الأسوأ) !!

صحيح أن الأجيال المسلمة التي صنعت هذه الحضارة الشماء ، لم تكن في شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية (الروحية) ، وهو أمر اعترف به الجميع ، ولكن هذا لم يقف حائلاً أمام تفوقهم العلمي ، وتقديرهم الحضاري ، وجهادهم الأخلاقي . بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل الثالثى نصب أعينهم ، باعتباره مثلاً إنسانياً أعلى ، وبذلك يجمعون بين الحسنين أو يحاولون ذلك على الأقل : حسنة الإبداع الحضاري المادي ، وحسنة السمو الروحي ، والترقى الإيمانى والخلقى .

على أن هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة ، وتنوه بصبرها وثباتها في عصور الفتنة والأزمات التي يمتحن فيها أهل

الإياع ، وحملة رسالة الإسلام ، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر . حتى ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين ! قيل : منا أو منهم يا رسول الله ؟ قال : « بل منكم » ^(١) .

كما صحت أحاديث كثيرة تبشر بعد مشرق ، ومستقبل زاهر للدعوة الإسلام ، وملك واسع لدولته .

وصح الحديث كذلك أن الله يبعث في كل مائة سنة من يجدد للأمة دينها ، وبذلك يتجدد أملها ، ويقوى رجاؤها ، في صلاح الحال إذا فسد ، وقوه الدين إذا ضعف ، واستقامة الأمر إذا اعوج .

* * *

• استمرار الخير في سائر أجيال الأمة :

وإياع المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعني أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيمة ، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الحirيات ، فقد حازتها تلك القرون ، ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقى الفتات .

(١) رواه أبو داود في سنته ، كتاب الملاحم برقم (٤٣٤١) ، والترمذى في التفسير (٣٠٦٠) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه في « الفتن » (٤٠٤٠) ، كلهم عن أبي ثعلبة الخشنى .

بل الحق الذى لا ريب فيه أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة : واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة في كل العصور ، ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾^(١) . وكم ترك الأول للآخر ، وكم في الإمكان أبدع مما كان . وفي الحديث الشريف « مثل أمتي كالملطرون ، لا يدرى أوله خير أم آخره »^(٢) .

يقرر الشرح هنا : أنه كما لا يحكم بوجود النفع في بعض الأمطار دون بعض ، فكذلك لا يحكم بوجود الخيرية في بعض أجيال الأمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه ، وفي هذا إيماء إلى أن باب الله مفتوح ، وطلب الفيض من جنابه مفسوح . فكل طبقة من طبقات الأمة لها خاصية وفضيلة ، توجب خيريتها ، كما أن كل نوبة من نوبات المطر لها فائدتها في النشوء والنمو لا يمكن

(١) المائدة : ٤٨

(٢) رواه الترمذى عن أنس فى أبواب الأمثال (٢٨٧٣) ، وقال : حسن غريب ، ورواه أحمد والبزار والطبرانى عن عمار بن ياسر ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : (٦٨/١٠) : ورجال البزار رجال الصحيح ، غير الحسن ابن قزعة ، وعبيد بن سليمان الأغر ، وهما ثقنان ، وفي عبيد كلام لا يضر ، ورواه البزار والطبرانى فى الأوسط عن عمران بن حصين ، وقال البزار : لا يروى بإسناد أحسن من هذا . المجمع : (٦٨/١٠) ، ورواه ابن حبان فى صحيحه عن سلمان جـ ١٦ حديث (٧٢٢٦) ، وحسنته محققه بشواهده .

إنكارها . فإن الأولين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات ، وتلقوا دعوة الرسول بالإجابة والإيان ، والآخرين آمنوا بالغريب ، لما تواتر عندهم من الآيات ، واتبعوا من قبلهم بالإحسان . وكما أن المتقدمين اجتهدوا في التأسيس والتمهيد ، فالمتأخرون بذلوا وسعهم في التقرير والتأكيد ، فكل ذنبهم مغفور ، وسعيهم مشكور ، وأجرهم موفور .

قالوا : والمراد هنا وصف الأمة قاطبة - سابقها ولاحقها ، أولها وآخرها - بالخير ، وأنها ملتجمة بعضها بعض ، مرصوصة كالبنيان ، مفرغة كالحلقة التي لا يدرى أين طرفاها (١) .

وال المسلمين في كل مكان و زمان يرددون هذا القول بوصفه حديثاً نبوياً : « الخير في وفى أمتى إلى يوم القيمة » ومعناه صحيح ، وإن لم يرد بهذا اللفظ .

فقد صحت جملة أحاديث عن عدد من الصحابة تؤكد أن « لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله » (٢) ، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم « وَمِنْ خَلْقَنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ » (٣) .

(١) انظر ص (١٢٠) ، هامش ١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب (الإمارة) ٥٣ ، والبخاري في صحيحه ٦١ ، كتاب (المناقب) ٢٨ ، باب : ٦٣٢/٦

(٣) الأعراف : ١٨١

كما صحت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام ، تعلو فيه كلمته ، وتنشر دعوته ، وتسع دولته ^(١) .

* * *

● سنن وقواعد مطردة :

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون : أن ثمة مبادئ راسخة ، وقواعد ثابتة ، وسننًا مطردة ، من محكمات القرآن والسنّة ، يحتمل إليها الجميع ، منها :

١ - أن لكل عمل ثمرة ، ولكل جهد جزاء ، في الدنيا قبل الآخرة ، كما قال تعالى : « إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً » ^(٢) ، « وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ » ^(٣) .

٢ - أن الجهاد في الله ، سواء كان جهاداً روحياً أم مادياً ، لا يهدره الله أبداً : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهَدِيَنَّهُمْ سُبْلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » ^(٤) .

٣ - أن من نصر الله نصره الله ، ومكّن له في الأرض ، وإنما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات ، والصالحات : كل ما تصلح به

(١) انظر صفحة (١١)، هامش ١

(٢) الكهف : ٦٩ (٣) الأعراف : ١٧٠ (٤) العنكبوت :

الحياة روحياً ومادياً ، وما يصلح به الإنسان فردياً وجماعياً . يقول تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوْيٌ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَاتَّوْا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (١) ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلُنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٢) .

* * *

(٢) النور : ٥٥

(١) الحج : ٤٠ ، ٤١

الفهرس

الصفحة

| | | |
|----|-------|--|
| ٥ | | مقدمة |
| | | المبشرات بانتصار الإسلام : |
| ١٠ | | * المبشرات من القرآن الكريم |
| ١٦ | | قصص الرسل وعاقبة المؤمنين والمكذبين |
| ١٨ | | وعد الله بنصر المؤمنين |
| ٢٠ | | وعد الله بإحباط كيد الكافرين |
| ٢٦ | | * المبشرات من السنة النبوية |
| ٢٧ | | ١ - انتصار الإسلام في العالم كله |
| ٢٨ | | ٢ - عودة الإسلام إلى أوروبا |
| ٣١ | | ٣ - اتساع دولة الإسلام في المشارق والمغارب |
| ٣٢ | | ٤ - الرخاء والأمن وفيض المال |
| ٣٣ | | ٥ - عودة الخلافة على منهاج النبوة |
| ٣٤ | | ٦ - الانتصار على اليهود |
| ٣٦ | | ٧ - بقاء الطائفة المنصورة |
| ٣٧ | | ٨ - ظهور المجددين في كل عصر |
| ٣٨ | | ٩ - نزول المسيح |

| | | |
|----|-------|--|
| ٣٩ | | ١٠ - ظهور المهدى .. |
| ٤١ | | * مبشرات من التاريخ .. |
| ٤٨ | | - فى حروب الردة .. |
| ٤٩ | | - فى الحروب الصليبية .. |
| ٥١ | | - فى حروب التتار .. |
| ٥٣ | | - حروب التحرير فى العصر الحديث .. |
| ٥٤ | | * مبشرات من الواقع .. |
| ٥٩ | | بين الأمس واليوم .. |
| ٦٦ | | استمرار حركة الأحياء والتتجدد |
| ٦٨ | | الصحوة الإسلامية وأثارها .. |
| ٧٠ | | التيار الإسلامي أقوى وأرجح في الميزان .. |
| ٧٣ | | القوى التي تملکها الأمة .. |
| | | * تحذيرات الأجانب من القوى المذخورة : في الإسلام |
| ٧٦ | | وأمته .. |
| ٨١ | | محن الدعاة .. |
| ٨٣ | | * مبشرات من السنن الإلهية .. |
| ٨٣ | | - سنة التداول .. |
| ٨٦ | | - سنة التغيير .. |
| ٨٩ | | وقفات لا بد منها .. |

| | | |
|-----|-------|---|
| ٩١ | | تبنيه على أمرین |
| ٩٢ | | حسن البناء والأمل |
| | | * أضواء على أحاديث أسمى فهمها : |
| ١٠٧ | | حديث (بدأ الإسلام غرباً ...) |
| ١٢٢ | | بشائر من القرآن بظهور الإسلام من جديد |
| | | الحديث (لا يأتي عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه) |
| ١٢٤ | | |
| ١٣٢ | | الحديث (تحيير القرون قرنى ...) |
| ١٣٩ | | سنن وقواعد مطردة ... |
| ١٤١ | | الفهرس |

* * *

رقم الإيداع

١٩٩٦ / ٧٢٧٦

التوقيع الدولي I.S.B.N.

977 - 225 - 098 - 5

سلسلة ترشيد الصحوة
للدكتور يوسف القرضاوى
تصدرها مكتبة وهبة تباعاً

- صدر منها:
 - ١ - الدين في عصر العلم
 - ٢ - الإسلام والفن
 - ٣ - النقاب للمرأة .. بين القول ببدعيته .. والقول بوجوبه
 - ٤ - مركز المرأة في الحياة الإسلامية
 - ٥ - فتاوى المرأة المسلمة
 - ٦ - جريمة الردة .. وعقوبة المرتد .. في ضوء القرآن والسنة
 - ٧ - الأقليات الدينية .. والحل الإسلامي
 - ٨ - المبشرات بانتصار الإسلام

* * *